أقاصيص وقصاقيص

« مصمصة الأصابع »

اسم الكتاب : مصمصة الأصابع
تأليف : عمرو شهدي
تصحيح لغوي : عبد الرحمن عوف
تصميم الغلاف : مصطفي صادق
رقم الإيداع : ٢٧٩١٤ -٢٠١٧

ZERO ONE PICTURES
Production solutions that make sense.

زيرو وان بيكتشيرز للتوزيع – أحمد فخري – مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 01090288777

E.mail: Zeroonepictures@outlook.com
Zeronepictures.com
website: www.zeronepictures.com

© جميعُ الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو الكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

« مصمصة الأصابع »

أقاصيص وقصاقيص

عمرو شُهدي

إهداء إلى

زوجتي.. التي تشاركني رحلتي العشوائية، الجزء من الكل، والكل جزء منكِ

ابنتي.. التي جعلتني أتذوق (ليان) الحياة بعد خُشونتها

أبي.. الذي يحنو عليّ بقوته التي قوّمتني

أمي.. التي تستقوى عليّ بحنانها الذي دللني

الأخين.. الرقيب والصديق

المُقدمة خدعة حقيقتُها النهاية

«نُسخة طِبق الأصل»

أكرم تلك العجوز إكرامًا غير مقصود، فنظرت إليه وقالت بصدق:
– يا ليت كل الخلق مِثلك يا بُني.
أدار وجهه وأعطى العجوز ظهره راحلًا عنها. وجد كل من حوله نُسخة طبق الأصل منه، البائعين والمُتجولين والمتسولين، السائرين على أقدامهم والراكبين، اللصوص ورجال الأمن الساهرين، الموظفين والعُمال والعاطلين، الجالسين على المقاهي للنارجيلة مُدخنين؛ جميعهم قد تحولوا إليه. لم تكُن تعلم العجوز أنه مِنْ أقبح المخلوقات على وجه الأرض، وهكذا أصبح العالم كله من حوله قبيحًا.
قرر الرجل أن يُصلح المُجتمع من حوله، وأن يجعل من كل هؤلاء الأشرار أخيارًا، فبدأ بنفسه، ولكن أيهم نفسه؟ جميعهم هو.

******

«أكرههم للغاية»

أكرههم للغاية، تنطلق أعضاؤهم لتعبث بالأشياء وتُحطمها دون وعي، ودون مقدرة مني للسيطرة عليهم.

أجلس أنا وزوجتي في منزلنا على الصالون المُذهب المصبوغة أقمشته بلون دم الغزال، ويبرق أمامنا زجاج الطاولة المُستطيلة التي تعلوها أكواب الشاي القاتم الذي يرقد بداخلها وريقات النعناع الأخضر.

اجتمعنا بعد استضافة ثنائي آخر وطفلهما ذي الخمس سنوات؛ طال الحديث بيننا حيث كنا نسترجع ذكريات الجامعة التي جمعتنا نحن الأربعة وجعلتنا زوجين، بينما كنت أنا غارقًا في التفكير في صديقي الأسود.

مُنذ بضعة أسابيع، كنت عائدًا من عملي مُحبط للغاية، دخلت غرفتي وأغلقت الباب والنور، لكن ما زالت هناك إضاءة الغروب الصفراء تتسلل من خلف السِتار الأبيض الشفاف.

أكرههم للغاية هذه الكائنات التي تلتصق بالأرض والأشياء، ولكن هذا بالتحديد كان يتسلل ليظهر من بين أصابع قدمي ليشُق طريقه على ساقي المُشعر، وكأنه يسير وسط حشائش الغابات. أشعر بكل قدم من أقدامه الستة الرفيعة التي تُدغدغ أعصابي، أُدقق النظر في جسده الأسمر المفلطح، وجناحيه بلونهما البني الشفاف، يستشعر طريقه على جسدي بقرنيه الطويلين، حينما دققت النظر في عينيه الكبيرتين، وحينما استمعت إلى صوت الصرصرة الصادر منه، شعرت أنه يُهدئ

أعصابي ويُواسيني. هذا بالتحديد هو الذي لم أشمئز منه مُنذ صغري ولم أصرخ ولم أركض نحو أي حذاء كي أقضي عليه دون أن تنبثق منه نقطة دم واحدة.

زاد ارتباطي به يومًا تلو الآخر، حتى أنني أهملت زوجتي وعملي. كنت أنتظر الوقت الذي أستغله كي أركض نحو غرفتي وأُغلقها وأزيح عنه هذا الصندوق الزجاجي لينطلق ونلعب سويًا، كنت قادرًا على سماع ضحكاته ورؤية الابتسامة التي تعلو وجهه، كنت قادرًا على رؤية الدموع التي تسيح من عينيه في لحظات ضعفي وحزني، حتى نظرات الغيرة في عينيه كنت قادرًا على تمييزها.. وأحاول جاهدًا أن أعدل بين زوجتي وصديقي الأسود !

نسترجع الذكريات تلو الأخرى.. ولا تنتهي، حتى رأيت الصرصار فجأة يركض نحوي. كنت أعلم أنه مل الجلوس بمُفرده في الغرفة وقد اشتاق إلى اللهو، وبمجرد أن لمحه هذا الطفل – الذي لم يهدأ مُنذ دخوله ولم يتنازل عن تحطيم مجموعة من الإكسسوارات المُتنوعة في المنزل – كشر الطفل عن أنيابه وقفز نحوه وأخذ الخطوة كي يدهسه؛ ولكن الصرصار أفلت وأسرع من خطواته في توتر شديد متسلقًا الحائط، وما زال الطفل يُلاحقه صارخًا عازمًا على قتله، وعزمتُ أنا على قتل الطفل إن مس صديقي بسوء.

ما زال الطفل اللعين يصرخ ويعلو ويهبط ويقفز ويتقافز ويطير ويحبو ويلهث، وكنت أنا أتلوى في جلستي على الصالون المُذهب المصبوغة أقمشته بلون دم الغزال، أتصبب عرقًا.. وبدأ جسدي في الارتعاش

خوفًا على الصرصار، والبقية يتحدثون وتتعالى ضحكاتهم دون أدنى وعي بما يحدث لي.

ينظر صديقي من الأعلى داخل عيني.. يستنجد بي ويتوسل إليَّ، أنظر إليه من الأسفل وأخشى أن تهتز مكانتي أمامهم. قفز الطفل على الصالون المُذهب المصبوغة أقمشته بلون دم الغزال، ثم قفز في الهواء حتى يصفع السقف بيده، فسقط برأسه على زجاج الطاولة المُستطيلة التي تعلوها أكواب فارغة إلا من بعض أوراق النعناع المُبتلة المُلتصقة بزجاجها، انفجرت الدماء من رأس الطفل وتناثرت على الزجاج المُهشم. وفي تلك اللحظة فقط – ودون وعي مني – ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي وأنا أنظر لصديقي في الأعلى، لكني وجدت في عينيه نظرة لوم، ثم أعطاني ظهره وخرج من الشباك المفتوح.. ولم يعُد!

******

«مِنكُم وإليكُم»

بمُجرد أن يتسلم هذا المظروف الأبيض الذي يحتضن مُرتبه الشهري، حتى يفضه ويُخرج جميع الأوراق المالية بداخله على اختلاف فئاتها، يُمسك بالقلم ويكتب على كل ورقة منهم، فهو يعلم جيدًا أن تلك الأوراق هي أكثر الأشياء تداولًا بين جميع الفئات، وعلى جميع المُستويات، وعلى مدار السنوات.

يكتب عليها جُملًا مُتنوعة يجدها تحفيزية تُساعد على التغيير ولو بشكل بسيط في نفوس الأشخاص البائسين ممن يركضون يوميًا للحصول على تلك الأوراق المالية، حتى يعطوها لغيرهم ممن يركضون يوميًا للحصول عليها.

وحينما لاقت الفكرة استحسان المسئولين أصبحت الأوراق المالية تُطبع وفي أعلاها مُستطيل رفيع أبيض فارغ جاهز للكتابة، وحينما لاقت الفكرة المزيد من الاستحسان ولم يعد المستطيل الرفيع أعلاها يكفي للجمل التحفيزية، أصبحت الأوراق المالية كلها عبارة عن مُستطيل أبيض ضخم جاهز للكتابة دون أرقام تُحدد فئاتها، بل أصبح ما يحدد قيمة تلك الأوراق المالية هو المكتوب عليها من جمل فقط.

******

«الغواص»

لا أطيق صبرًا البحث في الجراج عن مكان كي ترقد فيه سيارتي الجيب الضخمة، كفى أنني أقودها في جراج مصر الكبير؛ نزلت من السيارة وأعطيت المفاتيح في حركة روتينية لـ «السايس» حتى يجد لها مكانًا بخبرته.

بينما أسير في الممر المؤدي إلى مقهى «ستاربكس»، لمحت من خلف الجدار الزجاجي الذي يُحاوط المكان تلك الطاولة التي تنتظرني عليها (حبيبة)، وكان يجلس إلى جانبها (ياسر) خطيبها. لم تُخبرني أنه معها كي لا أمتنع عن الحضور. هو لطيف للغاية – لا يختلف عنها كثيرًا – ولكني أخجل من وجودي معهما، أشعر وكأنني كائن فضائي ليس هنالك أي مُبرر لوجودي بينهما. رأيت شخصًا يجلس أمامهما على نفس الطاولة، رأيته من ظهره العريض فلم أتبين ملامحه، ولكني لم أرَ مثل هذا الظهر المليء بالعضلات المُتناسقة من قبل.

بمُجرد دخولي، شعرت وكأني ارتويت بفعل الهواء البارد في الداخل بعد حرارة الشمس المُلتهبة في الخارج، نزعت عني نظارتي السوداء، ومشيت بضع خطوات نحوهم، قفزت (حبيبة) من مكانها بمُجرد رؤيتها لي واحتضنتني بشدة، ثم صافحني خطيبها (ياسر) بدوره بترحاب شديد، ثم ناول كفي إلى جليسهم الثالث:

– (مُنى)، كاتبة صحفية.

– (عزيز)، غواص.

ابتسامة روتينية من كلانا للآخر، ثم جلست على الكرسي الفارغ بجانبه. تنفست رائحته بمجرد جلوسي، رائحة ذكورية ودودة، شعرت أنها تحتضن أنفاسي، رائحة تناولتها في شهيقي بشدة حتى أنني لم أشأ أن أُخرجها زفيرًا أبدًا.

استدعيت ملامحه.. ملامح شاب أسمر اللون، رياضي الجسد متناسق، وليس مثل هؤلاء الذين يحملون أطنانًا من العضلات التي تُثير اشمئزازي، يبدو أيضًا أنه في نهاية العشرينات من عمره.. هو غواص بالفعل.

تخيلته وهو يقبض على كف يدي بشدة وكلانا يرتدي بدلة الغوص المطاطية السوداء بتلك الخطوط الفسفورية الصفراء التي تُزينها، نحمل اسطوانات الهواء على ظهورنا، ونظارة الغوص التي تُخفي نصف وجهانا، ووحدة التنفس داخل فم كلانا، ونرتدي في أرجلنا الزعانف كالأسماك، ولكني أُفضل أن أبدو كعروس البحر، نسبح في بحر بلون السماء الصافية وسط الأسماك الصغيرة بألواناتها المُتعددة – خضراء وصفراء وبُرتقالية – السلاحف المائية المُضحكة بأحجامها المُتفاوتة، الطحالب والشعب المُرجانية وبيض الأسماك التي تُثير ذعري، ولكنه يقبض على كفي بقوة فيبعث بداخلي الاطمئنان من جديد. أشعر أن نفسي يضيق فأتحسس وحدة التنفس في فمي فلا أجدها، أراها تسقط بالأسفل في الأعماق، ينزع بدوره وحدة التنفس من فمه، ثم يُقبلني قبلة الحياة!

أفيق من القبلة على صوت (ياسر) حتى يُزيح الصمت:

– (عزيز) يا سيتي غواص...

– سمعت.

– غواص مجاري.

بلاعة ضخمة فُتح غطاؤها لتفوح منه الروائح السوداء كلون المياه الجارية بداخلها، ينبعث من داخلها غاز الميثان والكبريت ليضرب قلبه، يقف بنفس بدلة الغوص كاملة مربوط بحبل قد تدلى من السماء على ما أظن، يغطس بوجهه ثم يغوص بجسده كاملًا بالداخل ليختفي في الظلام وسط الحشرات الغريبة، شعر النساء المُتراكم بكميات مُرعبة، الفئران المُنتفخة، وحيوانات أخرى لا تتبين ملامحها، يخرج من البلاعة الضخمة ينزع القناع عن وجهه في حدة لينتزع الهواء بالخارج ويتساقط على وجهه بواقي مياه المجاري لتنسال بداخل شفتيه وهو يُشعل سيجارة ينفث دخانها بوجهي المشمئز، أسعل بشدة من الرائحة كي أفيق على صوت (حبيبة) تضحك.

– (ياسر) بيهزر، عزيز غواص جو.

طائرة مُعلقة في الهواء فوق السحاب، نقفز منها سويًا بمُنتهى جنون المُغامرة ليُفتح الباراشوت في الهواء ويُعلقنا باسطي ذراعينا في الهواء كالطيور، نصرخ بجنون حتى تُقطع أحبالنا الصوتية، وتُقطع أحبال الباراشوت، فنسقط بسرعة فائقة من الأعلى ينتظر كلانا ارتطامه بالأرض.

– (مُنى) إنتي بتروحي فين؟

يُعلق (عزيز) على صمتها مُنذ جلست، وشرودها في اللا شيء.. فتُجيبه:

– ولنا في الخيال حياة.

«شذوذ نفسي»

استغلت عدم وجود أحد بالمنزل، حدثتها عبر الهاتف وطلبت منها أن تأتي وتبيت معها الليلة، حتى يسترجعا سويًا طفولتهما وصداقتهما وجميع الذكريات. أغلقت الهاتف وذهبت لتبتاع من السوق كل ما كانا يعشقانه مُنذ الصغر، ابتاعت تلك الدجاجات المُقرمشة المُجمدة، وذلك النوع المُفضل لديهما من المعكرونة والبطاطس، وابتاعت بعض المكسرات المُتبلة التي يعشقاها، وابتاعت نوع الآيس كريم المُفضل لديهما ثم عادت ورتبت كل شيء.

وبعد قليل، رن جرس المنزل.. ركضت وفتحت الباب لتجدها وهي تحمل بعض الأكياس البلاستيكية التي تحمل علامة السوق الذي ابتاعت منه مُستلزماتهما للتو. دخلا سويًا في سعادة عارمة نحو المطبخ حتى تُفرغ حاجات ضيفتها، وجدت أنها هي أيضًا قد ابتاعت تلك الدجاجات المُقرمشة المُجمدة، وذلك النوع المُفضل لديهما من المعكرونة والبطاطس، والمكسرات المُتبلة ونوع الآيس كريم المُفضل لديهما.

الآن أصبح لديهما اثنين من كل شيء، دخلتا في نوبة ضحك هستيرية.. كانت سهرة رائعة مليئة بالذكريات والحكايات والنصائح والتوجيهات والرقص والغناء، ثم اتجهتا بعد سهرة مُرهقة إلى الفراش، نظرت إلى ضيفتها قائلة في حزن شديد:

– كم كُنت أفتقدكِ.. أرجوكِ لا تبتعدي عني مرة أُخرى وسط ضغوطات الحياة.

تناولتها الأخرى بين أحضانها ثم قبلتها على جبينها بعض القُبل التي جعلت الرعشة تسري في جسدها، تشجعت الأخرى وقبلتها قبلة تبعتها بقبلات حارة عديدة أغرقت بها وجهها، ثم لثمت فمها، ثم تشجعت وأخذت تعبث بجسدها. كانت تنتزع كل قطعة من فوق جسدها في حرارة حتى صارتا عاريتين تمامًا، وأخذتا تلتويان حول بعضهما البعض كالأفاعي، حتى تسرب إلى أُذنيهما صوت احتكاك أجسادهما الناعمة، غرقا في النوم سويًا بعد علاقة جنسية كاملة.

استيقظت من النوم على صوت زوجها يسألها والشك يملؤه عن كمية الأطباق والأكواب المُلقاة خارجًا، والتي كانت لفردين! يسألها عن سبب نومها عارية! نظرت حولها فلم تجد غيرها على الفراش، ولم تجد سوى ملابسها المُتناثرة حولها، نظرت إليه قائلة:

– هل تعلم.. لم أكن أتخيل أنني شاذة إلا بعد أن ضاجعت نفسي بالأمس من كثرة اشتياقي لها.

******

«عزاء النفس»

لم يكُن يدري ما الذي جعله يستيقظ من نومه في هذه الساعة من الليل، حملته خطواته إلى طريق لم يكُن يعرفه من قبل رغم وجوده في هذه المنطقة مُنذ سنوات. وجد ورقة مُلقاه أمامه في الشارع، لم يدرِ لماذا أثارت تلك الورقة فضوله، تناولها وأخذ يُحرك شفتيه بكلماتها المكتوبة.

كُتب على الورقة بخط طفولي: «(كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ) ببالغ الأسى والحزن وبقلوب مؤمنة بقضاء الله وقدره نتقدم بأحر التعازي وصادق المواساة لوفاة المُهندس...»، وجد اسمه الرباعي، أعاد تكرار قراءة الاسم أكثر من ألف مرة، هذا هو اسمه!

أصابه الهلع.. ولكنها ربما تكون مُصادفة سخيفة، وما هي إلا تشابه وظيفة وأسماء رباعية، ثم واصل القراءة من الورقة: «والذي وافته المنية يوم»..، قرأ التاريخ.. هذا هو تاريخ الأمس! ، «سائلين الله العلي القدير أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته ويُسكنه فسيح جناته».

كور الورقة بين قبضة يده ثم ألقاها في جيبه في جهل مصحوب برائحة الموت. ما زالت خطواته تحمله إلى حيث لا يعلم، وكأنه طير تائه يُحلق في السماء حتى وجد نفسه أمام جامع ضخم يُتلى فيه القرآن الكريم بترتيل العزاء؛ دقق النظر على لافتة العزاء الموضوعة على باب الجامع وقد كُتب عليها: «(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) صدق الله العظيم.. عزاء المرحوم

بإذن الله تعالى – قرأ اسمه الرباعي – تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

دقق النظر في الواقفين فوجدهم جميعًا أهله وعائلته وأصدقاءه المُقربين وغير المُقربين، وجد زوجته وطفلته ذات الأربع سنوات، كان الجميع يرتدي اللون الأسود وسط بُكاء حاد . . اكتملت الصورة .

إنه الآن ميت، جسده مُلقى تحت التراب، وما هو إلا روح غير مرئية، صدقت أكاذيب أن روح الميت تظل هائمة في فضاء الدنيا باستطاعتها رؤية جميع الأشياء من حولها دون التأثير فيها .

أكمل خطواته نحو الجامع على ثقة عمياء بأنه ميت ولن يراه أحد من أهله وأصدقائه، لكنه وجد الجميع يلتف حوله ويحتضنه ثم ازداد بكائهم وأجلسوه على أحد الكراسي الخشبية وسط ذهوله، أحضر طفلته الصغيرة وأجلسها على قدميه، حاول تهدئتها ثم سألها :

– حبيبتي، من صاحب هذا العزاء؟

– أنت يا أبي .

– ولكني ما زلت على قيد الحياة، والجميع يرى ذلك .

– جسدك فقط هو ما زال على قيد الحياة، ولكن ضميرك وأشياء كثيرة ماتت بداخلك ودُفنت تحت التُراب، وها نحن نستقبل فيها العزاء .

******

«ضريبة النسيان»

عم (أمين).. كتلة تجاعيد ما زالت تُعافر بخطواتها حتى يصل من البيت إلى المقهى أو العكس، هو في مُنتصف العقد التاسع من عمره تقريبًا – إن لم يزد عن ذلك – يخلق أصدقاءه من العدم، ويكسبهم بخفة دمه اللا مُتناهية، والتي تدعمها حروفه غير المفهومة من خلف أسنانه التي لم يبقَ منها شيء سوى لثته، ورأسه التي لم يعد بداخلها ذاكرة. يحاوط إصبعه بخاتم ضخم يرقد بين أصابعه وحيدًا مثل وحدته هو.

يسير عم (أمين) ناحية طاولتي، وأنا أجلس شاردًا، أجد خطواته التي يحاول بها أن يبدو متمتعًا بصحته وعنفوانه فتزيد من شفقتي عليه. وفي محاولتي لكتم ضحكاتي، سحب كُرسي خشبي وهو يحكُه بالأرض وجلس مُقابلي، ثم تناول النارجيلة ووضعها بين شفتيه دون أن يُدخن، ابتسم ونظر في عيني نظرة تحدٍ، ومد يُمناه ناحيتي بعد أن ألصق كوعه بالطاولة، قائلًا:

– تلاعبني رِست ياض؟

أعلم جيدًا الوحدة التي يُعانيها هذا الشيخ الكبير، فرحبت به دون وعي ولم أشعر سوى بابتسامة تعلو وجهي وناولته يُمناي. كان يُحاول جاهدًا وقبل حتى أن أشد من أعصابي شعرت أن عظام كفه سوف تتهشم بين أصابعي، باغتني وصفعني بالخاتم الذي يرتديه في يُسراه بأنفي لتسيل قطرة دم على فمي، ثم ضغط على يدي حتى غلبني في أقل من ثانية.

نهض من مكانه وكأن شيئًا لم يكُن.. سار بضع خطوات في طريقه نحو بيته، ثم التفت ناحيتي بينما أتحامل أنا على ألمي، أعاد خطواته ناحيتي وجلس أمامي مرة أخرى، ومد يُمناه ناحيتي بعد أن ألصق كوعه بالطاولة، قائلًا:

– تلاعبني رِست ياض؟

******

«دُخلة المرحوم»

الرؤية من مكاني هذا واضحة للغاية بكل تفاصيلها على عكس ما كُنت أتوقع تمامًا، في مكاني هذا أرقد وجسدي مُلتف بقُماشة بيضاء تستره، أتحسس جسدي فأشعر بالفراغ داخله، لا أعضاء بالداخل.. لا قلب ولا كبد ولا رئتان ولا أمعاء، فقط الخواء بالداخل.

في المدافن؛ تتناثر الكراسي الخشبية المُتهالكة، ولكنها أيضًا تبدو مُتناسقة باصطفافها جنبًا إلى جنب. طاولات شبه مُستطيلة تملؤها زجاجات الخمر الخضراء الرخيصة، أطباق فضِية اللون من طابقين مليئة بالفاكهة، الترمس، علب السجائر المحشوة بالحشيش والبانجو، كراسي يملؤها الرجال الذين لا تُميزهم ملابس ما، وكأن كل منهم قد خرج من غرفة نومه بملابسه إلى الخارج، النساء جميعهن ترتدين العباءات السوداء على أجسادهن الضخمة المُترهلة، لا تُميز إحداهن عن الأخرى سوى بلون الحجاب الذي يعتلي رؤوسهن، وألوانه كلها فاقعة تُضيء الظلام المُسيطر على المكان. أحجبة حمراء وصفراء وبرتقالية وتركوازية، وأطفال كثيرة جداً في هيئة رثة يركضون ويتقافزون ويصرخون وسط الموتى.

إضاءة مُعلقة فوق هذا الجمع بطول الحارة الضيقة، حبال مُعلقة عبارة عن لمبات صغيرة مُضيئة بألوان أحجبة رأس النساء، حبال مُضيئة عديدة بامتداد الحارة بالطول وتصل اليمين باليسار بالعرض في شكل رقم ٨، وتتدلى من مُنتصف الرقم كرات دائرية مُضيئة، على الحوائط جُمل

عديدة قد كُتبت بخطوط عريضة واضحة، هذه الجملة بالتحديد قد كتبتها أنا بيدي: «ارقدوا بسلام آمنين.. اللهم استودعتك من بات في قبره وحيدًا» ، وها أنا أرقد دون سلام أعاني من الوحدة حتى وسط هذا الصخب.

في نهاية الحارة «كوشة»، عبارة عن كنبة مُغلفة بالقماش الأبيض ومُحاطة بالورود البلاستيكية الحمراء، وفي الخلفية على قبر أحد الموتى تتدلى أقمشة وردية اللون وقد جُمعت أضواء الحارة خلفهم حتى جعلت العريس والعروس يتصببان عرقًا من الحرارة الصادرة منها.

بكت عيناي دون دموع حينما رأيتها تجلس إلى جانب عريس أسمر اللون، شعره مُجعد لامع، يرتدي البدلة السوداء والقميص الأبيض، وإلى جانبه هي في الفستان الأبيض المليء بالترتر الفضي اللامع الذي أعشقه، وكذلك حجاب رأسها الدائري الذي يُحيط رأسها، وجهها يمتلئ بالبودرة البيضاء ولون الاحمرار في شفاهها فاقع، ولون الازرقاق في رموشها فاقع، وكأنها تحمل حِملًا على وجهها جعلها تبدو حزينة. بالطبع حزينة؛ لأنها لم تتزوجني. تلك التي أحفظ تفاصيل جسدها، تلك التي لن تجد المُتعة مع زوجها كما وجدتها معي، حينما كنت أحملها بين ذراعي وأضعها فوق ما يُصادفنا من قبر مُرتفع وأطلق أصابعي تعبث في كل مكان لا يجول بخاطر الشيطان، أُسقط عنها حجاب رأسها لتظهر تلك الخصلة الذهبية التي أعشقها حينما تصبغها دون باقي شعرها، أظل كذلك حتى أقذف بداخلها كبت السنوات الماضية. ها هم المدعوون الذين يتراقصون – نساء ورجال وأطفال – أسفل سحابة ضخمة من الدخان على صخب الأغاني الشعبية التي

تصدح بالمكان. وعلى إحدى شواهد القبور في مُنتصف المكان هناك، كُتب المرحوم ثم اسمي الرباعي، صعدت بقدميها فوقه، راقصة بيضاء يمتلئ جسدها بعض الشيء، هذا «الامتلاء البلدي» يظهر في بدلة رقصها المكونة من قطعتين في لون جلد النمر، هذا اللون الذي يوحي بالشراسة. القطعة العلوية مُتعمدة أن تختارها صغيرة جدًا حتى تضغط على صدرها الضخم جدًا وتظهر اهتزازاته مع أقل حركة في رقصها، وتنورة قصيرة ضيقة للغاية تكشف عن تفاصيل مؤخرتها التي بالكاد قد غطتها، وتتدلى من سُرتها حلقة فضية لامعة. وأخذت الراقصة في التمايل كالأفعى بشعرها المُتطاير حتى تُزيد السكارى سُكرًا، كانت هذه هي أفضل زاوية لرؤية ما تحت التنورة من مكاني حيث أرقُد. أشعر بالمُتعة رغم خواء عضوي.

جميع المدعويين مُلتفون حولها، يُدخنون ويتراقصون ويُصفقون ويحتضنون بعضهم الآخر ويُباركون وسط أحواش القبور، والعريس الأسمر يرقد في سلام إلى جانب زوجته يرمقهم من مكانه في خجل. بالطبع هو يُفكر في معركته المُنتظرة مع عروسته بعد قليل، أُقسم برحمتي أن لن تحيا حتى تُضاجعها كما فعلت من قبلك.

أخذ العريس الأسمر يهتز جسده بشدة وكأنه أُصيب بنوبة صرع قوية، أخذ جسده ينتفض حتى احمرَّ وجهه وبرزت العروق في جميع أنحاء جسده؛ اللعاب بلزوجته يسيل من فمه وكأنه يُخرج روحه، وبعد دقائق استقر جسده وعاد إلى كرسيه إلى جانب عروسته، ولكن لم يكن هو، بل كان أنا بعد أن سكنت بداخله.. فالليلة هي «ليلة الدُخلة».

«درس اللا دين»

كُنا طِفلين تشهد المنطقة كلها بصداقتنا على الرغم من اختلاف ديانتينا، نلعب سويًا ونستذكر دروسنا سويًا ونعشق سويًا وينكسر قلبانا ممن عشقناهم سويًا، نصوم سويًا ونفطر سويًا ونُصلي سويًا، حتى اختلطت علينا الديانتان!

أصبح كل الأطفال في المنطقة يحاولون أن يُشكلوا مثل صداقتنا، فتجدهم أزواجًا.. كل مُسلم ومسيحي يتصادقان مُقلدين صداقتنا. وفي إحدى الأيام؛ عزمت على الذهاب لدرس الدين في جامع المنطقة الأكبر، أوصلني صديقي وكان في انتظاري بالخارج ساعتين كاملتين، وحينما خرجت وجدته هنالك يستند على العامود ينتظرني وحيدًا والابتسامة تعلو وجهه ربما إثر تذكره إحدى مُغامراتنا سويًا، ودون أن يراني أخذت أختبئ خلف السيارات حتى ابتعدت عن أنظاره وركضت بعيدًا عنه عازمًا على تطبيق أول ما تعلمتُ من دروس الدين!

******

«البضاعة»

صَعَدت إلى عَرَبَة النقل العام الضخمة ذاهبًا إلى منطقة التحرير، كانت العربة مُتكدسة بالركاب، حيث لا يوجد هنالك كرسي واحد فارغ، والممر أيضًا داخل العربة مليء بالرُكاب الذين يتشبثون بذلك العمود الحديدي المُعلق في سقف العربة.

بين كل دقيقة والأخرى؛ أُفاجأ بهؤلاء الباعة الجائلين الذين يقفزون داخل العَرَبَة لعرض بضائعهم، كنت قد حفظتهم وحفظت بضائعهم. منهم من يبيع كشافات مُضيئة، ولاعات، قصافة أظافر، كروت شحن، ماكينات حلاقة بأمواسها، أذكار وأدعية، مِقوار الكوسة والباذنجان، حلوى النعناع، ومنهم من يصعد لمجرد أن يستعطف الرُكاب بورقة يُلقيها بين فخذيك يحكي فيها مأساته، وكل البضائع السابقة يُلقيها بائعوها بين فخذيك كنوع من أنواع الإغراء بالمُنتج ثم يعودون مرة أخرى لجمعها أو جمع مُقابلها المادي.

ولكن تلك البضاعة كانت تختلف عن أي بضاعة قد شاهدتها تُعرض للبيع من قبل، قفزت إلى العربة شابة شرقية سمراء ترتدي عباءة سوداء تُظهر أدق التفاصيل في جسدها الطري الذي يهتز دون ازعاج، ترتدي حجاب رأس كُحلي اللون يُظهر مُنتصف شعر رأسها من الأمام، وضعت تلك الشابة رُكبتها بين فخذي ثم أشارت نحو صدرها في صمت.

******

«ثورة يوم القيامة»

جاء يوم الحشد الذي انطلق فيه جميع الفقراء من شتى مدافن المدينة ليخرجوا – رجال ونساء.. شيوخ وأطفال – خرجوا عرايا دون حياء لا يسترهم شيء سوى الغبار الذي يعلو أجسادهم، ملامحهم جامدة لا تستشف منها شيئًا، جميعهم صامت مشغول بنفسه وكأنه – رغم سيره وسط جموع لا حصر لها – يسير بمُفرده.

– نفسي..نفسي..

الشمس هبطت من السماء حتى قاربت أن تُلامس رؤوسهم، تحليل الموقف يوحي بأن تلك المُظاهرة ما هي إلا تمثيل ليوم القيامة، يُخبرنا المُتظاهرون بأنها نهاية العالم حيث بُعثوا من قبورهم، جميعهم عرايا.. أي أنه لا فرق بين رجل وامرأة، بين طويل أو قصير، سمين أو رفيع، أبيض أو أسود، غني وغني، فقير وفقير، غني وفقير، يُخبرنُا المُتظاهرون بأن الله – جل جلاله – لا يخُص جنته للأغنياء فقط، فلما يخُص الرئيس جنته للأغنياء فقط ويخص الفقراء بالجحيم؟ لا يسأل الله عبده سوى عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ وماذا عمل بما علِم؟

واليوم ما أعجب ما وصلت إليه البلاد بعد هذا البيان العاجل الذي أصدره رئيس الجمهورية ليمتص غضب العرايا المبعوثين من قبورهم، أصبح ينتشر في أنحائها الملل بطريقة مُملة، أتنفس كل يوم تلك الرائحة الروتينية التي لا يتخللها أي جديد. أي حياة تلك التي تخلو من القُبح

والفساد وسوء الأخلاق، أي حياة تلك التي تخلو من الذبح والقتل والزنا والكذب والخيانة والترنح ليلًا في شوارع المدينة بعد ابتلاع كاسات الخمر على صخب الأنغام التي تهتز عليها مؤخرات الراقصات؟ أين ذهب السباب الذي كان يتطاير من أفواه ساكنيها؟ أين النميمة والحسد والحقد والبغضاء؟ أين التحرش والاغتصاب؟ كيف لهؤلاء النساء أن يتجولن في الشوارع في مُنتصف الليل بتلك الجرأة دون أدنى خوف؟ أين الشياطين؟

كيف لكل المعاني الطيبة أن تطفو فجأة على سطح الحياة لتُصبح هكذا مليئة بالخير والعطاء والجمال؟ لم يعد هنالك كذب، ولما الكذب طالما لن يؤدي إلى نتائج أفضل، بين كل خطوة وأخرى تجد شخصًا يُساعد الآخر، الصغير يقف احترامًا للكبير، والكبير يحنو على الصغير، والسيدات تطهو الطعام وتوزعه على الرجال الكادحين، الكل يتطلع نحو كفالة الأيتام وكل أسرة تختطف طفلًا حتى تكفله، فلم تعد هنالك دور للأيتام، لم يعد هنالك أطفال غير متعلمين؛ فكل مُدرس تبنّى طفلًا حتى يقوم بتعليمه وتنشأته. لم تعد هنالك أُمية، وكل المرضى تجد من يُعالجهم، حتى أن سُكان البلاد أصبحوا يُشاركون في حمل الموتى وتغسيلهم وتكفينهم ودفنهم، لا تجد فقيرًا دون مأوى، لم يعد هنالك جوعى، لم تعد هنالك أي حاجة لأي مُحتاج، أينما ذهبت لا أجد سوى الخير وفاعليه.

بعد ذلك البيان العاجل؛ لم تعُد هنالك عُملة ورقية أو حتى معدنية، ولم نعد حتى إلى عصر المُقايضة، حيث تبادل البضائع والخدمات

بأخرى، ولكن أصبحت العُملة الوحيدة المُتعارف عليها في تلك المدينة هي عُملة (فِعل الخير). فقط حينما تُريد أن تبتاع شيئًا فسوف تجد ثمنه عبارة عن عمل خير ما مكتوب على بطاقة تتدلى منه، إن نفذت هذا العمل فيُمكنك الحصول عليه، وما زالت هنالك أشياء باهظة الثمن يكون المطلوب منك عمل خير مُرهق، وقد يستمر بضع أيام أو قد يمتد إلى أسابيع وشهور، وربما بضع سنين، ومن الممكن أن يكون رخيص الثمن ولا يتطلب منك التنفيذ سوى بضع دقائق، ومن ثم يُمكنك الحصول على ما تُريد.

بالطبع ما زالت هنالك البنوك قائمة بجميع تعاملاتها، فليس من المُشترط أن تنفذ عملًا حتى تحصل على البضاعة، فكلما فعلت خيرًا في أي وقت فإنه يتم تخزينه لك لوقت الحاجة، وما زالت أيضًا القروض قائمة والأسهم قائمة ودفاتر الشيكات قائمة، وماكينات الصراف الآلي كما هي، ما زالت كل هذه التعاملات كما هي، ولكن دون عملات ورقية أو معدنية، دون مُقايضة، حتى الإرث ما زال قائمًا كما هو، حيث ينتقل رصيد أفعال خير الجدود والآباء إلى الأبناء.

فقط؛ افعل الخير واحصل على ما تُريد. وهكذا أصبح لا يُميز الغني عن الفقير سوى أن هذا يفعل خير أكثر بكثير من الآخر، أو أن الفقير لا يفعل أو يعمل عملًا سيئًا فيتم الخصم من رصيده.

انتشر الخير في كل مكان وأصبحت المُساعدات تُقدم من كل اتجاه، حتى أصبح الاحتياج نادرًا للغاية، وما زالت الرغبة في فعل الخير والإضافة للرصيد قائمة لا تقل، الجميع يطمع لفعل الخير وجمع أكبر رصيد

مُمكن. وشيئًا فشيئًا يقل احتياج الناس، وحينما توجد الحاجة يركض الجميع نحوها، فنشأت من جديد الصراعات والحروب والذبح والقتل والتحرش والاغتصاب، وأصبحت أكثر من ذي قبل، ولكن كله في سبيل فعل الخير.

******

«الفراق»

ما زلت أتذكرُهما مُنذ طفولتي، كُنت أراقبهُما عن قُرب، كل سُكان أهل الحارة يعلمون تلك العلاقة الطيبة التي تجمع هذين الرجُلين، كل منهما يفرش على عربة يحملها حِماره، حمار أبيض وإلى جانبه حمار آخر رمادي اللون، يحملان بضاعة من أطيب الخضروات مُتضاربة الألوان، طماطم وباذنجان أسود وخيار وجزر وقرنبيط وبصل وبنجر وما إلى ذلك.

من النادر أن تجد في هذا الزمن صديقين لهما نفس مدخل الرزق وفي نفس المكان، دون أن يكون في قلب أحدهما للآخر كُره أو ضغينة، جمعتهما السنون جنبًا إلى جنب دون أن ينظر أحدهما إلى رزق الآخر أو يجذب الزبون نحوه دون الآخر.

وفي لحظة غضب، قرر الصديقان أن يفترقا في هدوء. وإلى هذا اليوم، ما زلت أتذكر ذهاب أحدهما نحو الشرق، والآخر نحو الغرب.. ما زلت أتذكر نظرات الحُزن المُتبادلة بينهما بين كل حين والآخر، ما زلت أتذكر الانكسار في آذانهما الطويلة الرفيعة، وسلام الوداع في حركات ذيولهما، ما زلت أتذكر بكاءهم الحاد في صوت نهيقهما.

******

«الأستاذة»

جميع مداخل العمارات يصعد سُكانها بِضع سلالم حتى يصِلون إلى منازلهم، أما هو فكان يهبط بِضع سلالم حتى يصل إلى منزله أسفل الأرض، أستاذ في الجامعة لا يملُك سوى عِشق زوجته ومبادئه، ينظر من نافذة منزله فلا يرى سوى أرجل القادمين والذاهبين في تلك الحارة بمنطقة الحُسين حتى أصبح يعرف سُكان الحارة من أقدامهم.

كان يعشق الوقوف أمام تلك النافذة ويُراهن نفسه على قدرته في معرفة قاطني الحارة من أقدامهم، على الرغم من أنه كان يشعر في لحظة مرور كل منهم أنه يدهس بأقدامه على رأسه، رأس أستاذ الجامعة العظيم، الذي أنجب أجيالًا من العباقرة.

كان يُحدث زوجته دومًا عن أن أعلى العلامات يحصل عليها دومًا طلابه في مواده هو فقط دون غيره، وكانت تحتضنه زوجته في سعادة ونظرة الفخر تملؤ عينيها بالبريق. وفي أحد الأيام، ذهب الأستاذ إلى جامعته حتى يُحاضر للطلاب مراجعته النهائية لما قبل امتحان نهاية العام، ولكنه لم يجد أحدًا، فتذكر تكرار ذلك الحدث عدة مرات سابقة، ولكن في تلك المرة تحديدًا قرر أن يعود إلى منزله دون الانتظار.

وحينما دخل الحارة وجد زحاماً شديداً أمام نافذة منزله، وحينما دقق في الوجوه من بعيد، وجدهم تلاميذه جميعهم، توارى خلف أحد الأسوار ليرى زوجته تقف في النافذة وتبيع لطُلابه أوراق الامتحان وتقبض منهم الثمن.

«مُمارسة الجنس عن بُعد»

كُنت أشخاص كُثر، ولم يتبقَ مني سواي. أجلس وحيدًا في الظلام الذي لا يُنيره سوى الضوء المُنبعث من شاشة اللاب توب أمامي، تتوسطه عدسة الكاميرا، طالما أغرتني هذه العدسة كي تنقلني إلى عوالم أخرى مجهولة.. عوالم يجلس خلفها أشخاص حقيقيون في عالم افتراضي، أشخاص أُقابلهم كل يوم في المنزل وفي العمارة وفي الشارع ووسائل المواصلات والعمل، في البر والبحر والجو، ولكنهم يظهرون بشخصيات غير تلك التي يظهرون بها خلف العدسة.. باختصار: لأنهم لن يقدرون على الظهور بها في الواقع.

أدخل على موقع «جوجل» حتى يرمقني المُستطيل الرفيع في فضول عما سوف أبحث عنه، كتبت بداخله «مُمارسة الجنس عن بُعد».

+18.. طالما استفزني هذا الرقم، قبل أن أتم هذا السن كنت أشاهد كل ما كُتب عليه «+18»، كنت أجدهما رقمين للدعاية التشويقية فقط لا للحذر، ومن هنا تجولت في هذا العالم حتى أدمنته.

بدأت بالتعارف على فتيات أتحدث معهن قليلًا عن الجنس ثم يتطور الأمر إلى فتح الكاميرا وعرض أجزاء الجسد على حسب ما أقدمه من مال في شكل كروت الشحن، وكله بثمن.

الحديث بشكل طبيعي له ثمن، والتأوهات لها ثمن آخر، والعُري حسب المنطقة التي ستقوم الفتاة بتعريتها له ثمن آخر، والمُضاجعة الافتراضية لها ثمن يختلف تمامًا عن باقي الأثمان كلها.

يظهر لي مُربع الدردشة بجانب الشاشة: هل تُريد بعض المرح؟
نعم بالطبع أريد بعض المرح، بل أريد الكثير منه، ضاجعت أكثر من مائة فتاة مُضاجعة افتراضية، ثم أثار فضولي البحث عن سن آخر يكبر سن هؤلاء الفتيات المُراهقات، فتطرقت لسيدات كبيرة في السن، حتى تلك العجوز الجالسة على كُرسيها المُتحرك خلف العدسة تتعرى أمامي، ثم بحثت عن الذكور الشواذ جنسيًا، ثم عن المتحولين جنسيًا، ثم عن هؤلاء الذين يجرحون ويعذبون أنفسهم وصولًا للذروة.
أتخيل هذا العالم فتيات ترتدي ملابس فاضحة في الليل تقف تحت أعمدة الإنارة إلى جانب الناموس المُتراكم عليها، تنتظر زبائنها، هذا بالفعل هو ما يحدث ولكن عن بُعد، التكنولوجيا يسرت الكثير من الأمور، وجعلت العديد من الفتيات يحتفظن بعُذريتهن وما زلن يجمعن ثروة لا بأس بها.
يظهر لي في جانب الشاشة «دردشة»، من فتاة في أواخر العشرينات من عمرها ترتدي قميص نوم أسود شفاف يُظهر ثدييها الصغيرين للغاية، «هل تُريد بعض المرح؟».
نعم بالطبع أريد بعض المرح، بل أُريد الكثير منه.. تبدأ الكلمات في التكاثر حتى يمتلئ صندوق الدردشة عن آخره، ثم يتطور الأمر إلى الآهات الجنسية المُتقطعة، ثم إلى عدسة الكاميرا بينما يُعري كلانا جسده، ويُضاجع بعضنا الآخر مُضاجعة افتراضية يُفرغ بها كلانا ما بداخله كي يُلقى جُثة هامدة.
فجأة.. فُتحت أنوار الغرفة لتُسيطر على إضاءة اللاب توب، ترمقني

زوجتي من مكانها بجانب أزرة الإضاءة التي فتحتها للتو، أضع كفي على عيني متحاشيًا هذا الكم الرهيب من الإضاءة، أُباعد بين أصابع كفي كي أراها بقميص نومها الأسود الشفاف الذي يُظهر ثدييها الصغيرين للغاية، تستفسر عن سبب استيقاظي في هذا الوقت المُتأخر من الليل، أُخبرها أني أُتابع بعض المُنتديات الجنسية، تجلس إلى جانبي وتُشعل سيجارة من العلبة الموضوعة أمامي، أنتشلها بسرعة من فمها وأُذكرها بسلامة الجنين الذي يركض في أحشائها، تسألني: «هل تذكر أول دردشة جنسية لنا سويًا؟» أُجيبها بأن كلانا إلى اليوم لا يستمتع بالمُضاجعة الجنسية الواقعية الكاملة كما يستمتع من وراء صندوق الدردشة، وخلف عدسة الكاميرا اللعينة، تُشير إلى بطنها المُنتفخة، ولكن جنس العدسة لا يُنجب أطفالًا.. نضحك كثيرًا.

نحسب سويًا كم جمعنا من المال من شبكة دعارتنا الافتراضية، نستحم سويًا في الشتاء بالمياه المُثلجة بينما نُمارس الحب كاملًا بشكل واقعي، أرمق عدسة اللاب توب الموضوع أمامنا في الحمام، أُخبرها أن ننتهي، ولكنها تُعيدني إلى صدرها بعد أن تُخبرني أن الزبون الراقد خلف الكاميرا يدفع الكثير من المال.

******

«صورة شخصية»

دق هاتفه وحينما أجاب فوجد صوتًا غليظًا ولكنه رسمي، أبلغه الصوت دون أية مُقدمات بأنه صحفي في جريدة المستقبل بصفحة الوفيات، ثم طلب منه – آمرًا – أن يُرسل له صورة شخصية واضحة حتى يضعها غدًا في خبر إعلان وفاته!

أغلق الهاتف غير مُستوعب لما تلقاه مُنذ قليل، ولكنه وجد نفسه يسأل زوجته في أي دُرج وضعت صوره الشخصية!

******

« الكيس الأسود »

استيقظت من نومي في السابعة صباحًا على جرس المنبه المُتكرر في ازعاج ممل، قفزت على الفور واقفًا، لم يزرني النوم من الأساس، لم يزرني سوى القلق والتقلب على فراشي في كل الاتجاهات.

فتحت خزانة ملابسي فظهرت أمامي مرآة طويلة قد لصقتها على درفة الخزانة، لمحت وجهي الغليظ الضخم الذي يتماشى مع جسدي المُترهل المُنتفخ، أتحسس الصلع الذي غزا رأسي حتى لم يترك لي سوى بعض الشُعيرات العشوائية في جوانبها، عيون مُنتفخة وأنف عريضة وفم واسع، منذ صغري وملامحي تُزيد من سنين عمري.

أرتدي ملابسي وأجهز ملابس العمل بداخل كيس أسود أقبض عليه بكفي، أتشمم بأنفي رائحة أعرفها جيدًا وأعرف مصدرها، رائحة الحلويات السورية التي تطهوها زوجتي كل يوم مع طلوع الفجر، تقابلني زوجتي على باب المنزل، هذه الشابة العشرينية السورية صاحبة البشرة البيضاء التي يُزينها النمش والشعر الذهبي والعيون الخضراء الفاتحة، ترمقني بابتسامة صباحية من وسط ملامحها الدقيقة.

– دعيتلك في الفجر.. الله يوفقك.

أطبع قُبلة وسط جبهتها، فألمح في الخلفية ابنتي التي تحمل نفس ملامحها تحبو على الأرض وهي تُودعني بابتسامة مثل أمها، أُشفق عليها من حمل أُمها لها على ذراع وحمل الحلويات السورية التي صنعتها على ذراع آخر حتى تبدأ رحلة بيع ما صنعته في شوارع المدينة.

يقف الميكروباص الذي ينقلني أمام الفُندق الذي يحمل على واجهته خمسة نجوم، أقف أمامه، أخطو بضع خطوات نحوه، ثم سرعان ما أتراجع، أتجه نحو خرابة هنالك على مرمى البصر إلى جانب الفندق، أركض نحوها وأتوارى بداخلها، أُسقط بنطالي عني وأُفرغ مثانتي على الحائط، ثم أُعود أدراجي ناحية الفندق.

بُمجرد دخولي تلفح جسدي برودة هواء التكييف المركزي بداخل الفندق، يسألني أحد رجال الأمن عن وجهتي بطريقة استنكارية وكأنهم من طينة أخرى لُمجرد عملهم في هذا الفندق، أصبحوا يتعاملون وكأنهم يملكونه، حالهم حال مُعظم تلك الطبقة اللعينة، أُجيبه وهو يقوم بتفتيشي عدة مرات، وبتفتيش الكيس الأسود الذي أحمله.

– أول يوم شغل، عامل نظافة بحمامات الفندق.

أدخل الحمام لأجد جدرانه وأرضيته كلها من الرخام بألواناته القاتمة التي تُضيئها إضاءة صفراء خافتة، تملؤه المرايا من جميع الاتجاهات، ورود طبيعية من نوعية التوليب بألواناتها المُتعددة في زوايا الحمام الذي تفوح منه روائح العطر، كل المقابض بالداخل من اللون الذهبي اللامع، تنبعث من السماعات في سقف الحمام موسيقى ناعمة للغاية تُساعد هؤلاء على قضاء حاجتهم، الجو بالداخل شديد البرودة يُساعد على شعورك بضرورة إفراغ مثانتك، وهذا في حد ذاته مُشكلة كبيرة، ليس هنالك مناديل، كلها فوط صالحة للاستخدام مرة واحدة ومن ثم يُمكنك إلقاؤها في سلة المهملات.

دخلت إحدى الحمامات المُنفصلة بالداخل حتى أرتدي ما بداخل الكيس الأسود.. الزي الرسمي الذي استلمته بعد انتهاء المُقابلة بالقبول، وقعت

عيناي على ما بداخل قعدة الحمام التي نقضي بها حاجتنا، وجدت أوراق ورود مُلونة تُزيد من رفاهية النُزلاء، شاشة تلفاز بالداخل تعرض كليبات الأغاني.

بدأ النُزلاء بالظهور واحد تلو الآخر، جميعهم يرتدون بدلات رسمية تجعلني لا أُصدق أن أمثالهم في حاجة إلى التبول، وكأنه فعل يقتصر على الفقراء. تمر الساعة تلو الأخرى وأنا أُمارس عملي في حرص شديد حتى لا أُخطئ، الساعة الآن أصبحت الرابعة عصرًا، وعملي من التاسعة صباحًا وإليها مساءً. البرودة تقتلني وترغمني على الشعور بدخول الحمام حتى أقضي حاجتي، أتحامل ساعة تلو الأُخرى حتى أوشكت مثانتي على الانفجار، أُشاهد الجميع لحظة دخولهم وهم يسارعون للدخول وتعلو ملامحهم تجاعيد الاحتباس، ثم في لحظة خروجهم في خطواتهم الواثقة وملامحهم بعد أن اختفت التجاعيد منها، ورسمت عليها أمارات الراحة.

أتتوق للشعور بهذا الإحساس ولكني لا أستطيع، الحمام أمامي فارغ ولا أقدر، باقي على عدد ساعات عملي ثلاث ساعات، يُمكنني بعدها أن أركض نحو الخرابة وأملؤها بما أشاء حتى أُحيلها أرضًا زراعية.

ترمقني المبولة السوداء ذات الخط الذهبي اللامع باستفزاز، أراها تُخرج لي لسانها من الداخل، أتخيل نفسي وأنا أركض نحوها بأسلوب التصوير بالحركة البطيئة حتى أصل لها فأنزع بنطالي ثم أُطلق العنان لعضوي حتى يُخرج «تحويشة العُمر»، أقتل الخيال حينما أشعر أنني لو استمر بي سوف أتبول على ملابسي.

يلفت انتباه الناس تقصيري الشديد في العمل حينما تركت الحمامات

بالداخل مُتسخة ولا أقدر على أن أناول أحدهم منشفة يمسح بها يديه، أصبحت أتلوى أمامهم مثل راقصة الباليه وما زلت غير قادر على الوصول نحو هدفي.

أشعر ببنطالي وهو يبتل ببضع قطرات تُحاول الهروب ولا أستطيع أن أقبض عليها، أسقطت بنطالي بُعنف إلى أسفل حتى انقطع الزر وطار في الهواء، التصقت بالمبولة وأرحت رأسي على الحائط ثم أخذت أستمع إلى صوت انسياب البول مع رعشة تسري في جسدي بأكمله، أتخيل مؤخرتي العارية أمام الجميع خلفي ولكن لا أُبالي.

صوت خطوات حذاء غالي الثمن تمشي في تحدي على رخام أرضية الحمام، استمعت إلى صوت تلك الخطوات من قبل، أستطيع تمييزها جيدًا، مالكها هو مُدير العمل، تحدث بنبرة هادئة ولكنها مُخيفة تخرج كفحيح الأفعى:

– في لعبة كرة القدم هنالك قوانين، ومن يتخطاها في المرة الأولى يحصل على إنذار، وفي الثانية يُطرد من أرض الملعب.. هذا هو إنذارك الأول.

– ولـ...

– كان هذا هو قانوني الأوحد.

– لم أقـ....

– لا حاجة تُقضى خلال فترة ساعات عملك، قُم بترويض عُضوك على ذلك.

في اليوم التالي.. يقف الميكروباص الذي ينقلني أمام الفُندق الذي يحمل على واجهته خمسة نجوم، أقف أمامه، أخطو بضع خطوات نحوه ثم سرعان ما أتراجع، أتجه نحو خرابة هنالك على مرمى البصر إلى جانب

الفندق، أركض نحوها وأتوارى بداخلها، أُسقط بنطالي عني وأُفرغ مثانتي على الحائط، ثم أُعود أدراجي ناحية الفندق.

بُمجرد دخولي تلفح جسدي برودة هواء التكييف المركزي بداخل الفندق، يقوم أحد رجال الأمن بتفتيشي عدة مرات، وبتفتيش الكيس الأسود الذي أحمله، يجد بداخله الزي الرسمي لعامل النظافة، ثم يجد حفاضات نسائية ضخمة أسفله، يُشير إليها مُستنكرًا، أجيبه في حِدة:

– حتى لا أُخرق قوانين العمل.

******

« مصير »

ابن الحانوتي يجعل من شواهد القبور المُتلاصقة مرمى يُسدد فيه أهدافه، في نفس الوقت الذي يرى فيه والدته تربط حبلًا بين شواهد القبور حتى تنشر عليه الغسيل المُبتل، هو يقطف الوردة ويركض بها نحو القبر حديث السكن، يتربع أمامه، يقتلع أوراق الوردة، ورقة تلو الأخرى، هامسًا:

في الجنة.. في النار

في الجنة.. في النار

في الجنة.. في النار

حتى يعلم مع آخر ورقة مصير الجثة الراقدة داخل هذا القبر، لينتقل إلى القبر الآخر. ظل هكذا حتى انتقل هو إلى قبره، وها هو يستمع إلى طفله المُتربع فوق قبره هامسًا:

في الجنة.. في النار

يدعو الله من داخل القبر أن تستقر آخر أوراق وردة طفله على الجنة، مع علمه بأن الأمر كان قد نفذ بدخوله النار.

******

«الإشارة»

استيقظ من نومه على هزات زوجته لجسده، وجدها تُشير له بيديها بأن الإفطار جاهز، وحينما خرج وجد أطفاله يتشاورون فيما بينهم بإشارات الجسد دون أن ينطقون بكلمة واحدة، وأثناء مُشاهدته للتلفاز وجد كل أبطال البرامج والأفلام والمُسلسلات يُحركون أياديهم ورؤوسهم وما أمكن من أجسادهم للتقديم والتمثيل، وحينما استقل سيارته للذهاب إلى عمله لم يجد هنالك أي صوت للإذاعة، وحوله كل السائرين والراكبين - رجال ونساء وأطفال وعجائز – يتواصلون بلغة الإشارة، بل إنه قد خُيل له أنه القطط والكلاب يتحدثون بأذيُلهم دون نباح ومواء، شعر بالاختناق فاستوقف أحد العابرين وحينما حاول أن يُحرك لسانه وشفتيه حتى يستفسر، وجد أن يديه هي التي تتحرك مُستفسرة عما يُريده.

******

«قِسم الحوادث»

يجلس بالمنزل وحيدًا بعد مُنتصف الليل، الظلام يخنق المكان.. يجلس إلى الطاولة المُربعة التي يفترش عليها الطعام، تشكيلة من المشويات رخيصة الصُنع – كباب وكفتة وطرب وفراخ مشوية – وتشكيلة من السلطات رديئة الصُنع ولكن شكلها ورائحتها ما زالت تُثير شهيته، تظهر من أسفل الطعام مجموعة من صفحات الجريدة التي قد افترشها على الطاولة حتى لا تتسخ، على الرغم من أنها طاولة مُتهالكة غير صالحة للاستهلاك الآدمي أو الحيواني، كل ذلك هو يستشعره لا يراه في هذا الظلام، حتى أنه لا يرى أصابع كفه حينما يلصقها بعينيه.

يتحسس بأصابعه الطاولة كالأعمى حتى يصل إلى علبة السجائر التي تعلوها ولاعة نحاسية، يرفع غطاء الولاعة ويمُر بإبهامه على تروسها لتنطلق منها النيران، يُشعل سيجارته وينفث دُخانها في الهواء، يضع الولاعة على الطاولة وهي ما زالت مُشتعلة لتُظهر ملامحه بشكل مُشوش.. جفونه المُنتفخة من أسفل، شُعيرات لحيته الحادة كشظايا الزجاج بلونها الأبيض والعسلي، عيناه أيضًا بلونهما العسلي الغامق، جبهته الواسعة؛ يبدو أنه كان وسيمًا في طفولته.. وما زال.

يُقرب شعلة الولاعة حتى يُضيء صفحات الجريدة المفروشة أسفل أطباق الطعام، يبدو أنها صفحات من قسم الحوادث.. يقرأ العناوين: «البحث عن قاتل قام بتقطيع جثته بأداة حادة داخل منزله بطريقة بشعة، بعدما قام القاتل بتسديد العديد من الطعنات في أجزاء مُتفرقة من جسده».

يتذكر طفولته.. وحيد هو ووالداه، يتذكر جلوسهما سويًا على مائدة الطعام المفروشة بجميع أنواع الطعام التي يُفضلها، كان مُدللًا للغاية وما يطلبه يلقاه. أسفل أطباق الطعام على المائدة قد فُرشت صفحات من جريدة اليوم، جميعها من قسم الحوادث، يقرأ والده جريدة كل يوم ويحتفظ بها في مكتبته ما عدا صفحة الحوادث، التي استبدلتها والدته بالمفارش.

أتناول طعامي طفلاً ذا سبع سنوات، بينما تتنقل عيناي بين أخبار تلك الصفحة المليئة بالجرائم، أعجز عن الاستمرار في تناول طعامي، وأقرأ الكلمات في نهم كأني أتناولها هي وأُطلق العنان لخيالي.. «إحالة عاطل للجنايات قتل ابنة خالته لسرقتها، ويعترف قائلًا: موتها ورُحت أشرب كوباية الشاي، «ذبح شاب بقرية في قنا فتاة في وضح النار لرفضها إقراضه عشرة آلاف جنيه»، شاب يقتل قريبته العجوز ويسرق (ذهبها)...

ترمقني والدتي بحِدة كعادتها:

– يا بني كُل طبقك كُله بدل ما أموتك.

أتخيل الخبر وأصيغه في رأسي بشكل تلقائي كما تعودت دومًا: «أم تقتل طفلها ذا السبع سنوات لرفضه تناول طعامه.. ويُذكر أن الأم كانت طابخة صينية بطاطس بالفراخ، وأرز بالشعرية، وسلطة بلدي».

أصبح جسدي هزيلًا جدًا كالهياكل العظمية، والسبب يخفى عن الجميع سواي. فقط أدمنت قراءة صفحات الحوادث المفروشة أسفل طعامي في الثلاث وجبات اليومية، زادت قراءتي لتلك الأخبار بطريقة جنونية.. «تجديد حبس عاطل ١٥ يومًا بتهمة قتل موظف في مُشاجرة

على مُمارسة الشذوذ»، «النيابة تأمر بتشريح جُثة شاب دهسه ضابط شرطة بسيارته»، «النيابة تأمر بتشريح جُثة شاب مقطوع الإصبع بجوار سور سجن طرة»، «أب يقتل ابنه أثناء إيقاظه من النوم»، «رجل يغتصب طفلته الوحيدة البالغة من العُمر سبع سنوات حتى قتلها وشرب من دمائها».

يفيق على كلمات أمه:

– يا حبيبي كُل.. والله لو ما طفحت أكلك لأقتلك وأشرب من دمك.

وبعد بضعة أيام، جلس يتناول طعامه الذي يعتلي جرائد صفحة الحوادث بمُفرده، ولأول مرة يقرأ الخبر بتمعن: «العثور على جثة رجل وزوجته أثناء تناولهما وجبة الغداء بسكين حادة.. ونجا من الحادث طفلهما ذو السبع سنوات بعد نجاحه في الاختباء بداخل الفُرن».

كانت هذه هي جريمته الأولى، أعجبه كثيرًا أن يكون بطلًا لهذه الأخبار التي تملء صفحات الحوادث، وليس مُجرد قارئًا لها.. أصبح يغبط بقية المُجرمين حينما يجد أن خيالهم في القتل وتنفيذه قد فاق خياله.

«العثور على جُثة سيدة مقتولة أعلى منزلها».. «العثور على طبيب تخدير مقتول داخل منزله».. «قتل صاحب سوبر ماركت في مُشاجرة على قيمة المواد الغذائية».. «العثور على جُثة طفل بعد اختفائه غريقًا في خزان مصرف صحي»..

جميعها، وغيرها الكثير؛ أخبار كان هو بطلها، وآخرها خبر: «البحث عن قاتل قام بتقطيع جثته بأداة حادة داخل منزله بطريقة بشعة، بعدما قام القاتل بتسديد العديد من الطعنات في أجزاء مُتفرقة من جسده»..

وما زال هو يتناول طعامه المفضل الذي افترشه على صفحة مليئة بالحوادث التي ارتكبها.

******

«كيدهن»

لم يعتد أن يُخفي عنها شيئًا، صارحها.. قال لها إنه قابلها. جلس مع حبيبته الأولى وتحدثا كثيرًا، لكنها لم تغضب كعادتها في أبسط الأشياء، ارتسمت ابتسامة على شفتيها تسأله:

– وهل ما زالت جميلة؟

فأجاب في لهفة:

– بل أصبحت أجمل بكثير.

اتسعت ابتسامتها أكثر، ثم سألته:

– وفيما طال حديثُكما؟

قال في تردد مَنْ يُقدم خطوة ويرجع ألف خطوة:

– هي تريد أن تتقاسماني سويًا.

اتسعت ابتسامتها أكثر وأكثر تستفسر منه:

– وكيف يكون التقاسم فيك؟ بالطول أم بالعرض؟

أجابها متحملًا سخريتها:

– هي تُريد أن تتقاسماني زمنيًا. هي سوف تتركني لكِ إلى يوم الدين، وهي سوف تبقى لي فيما بعد ذلك من الحور العين.

هنا غابت ابتسامتها وأصبحت تكزُ على أسنانها غضبًا، وصرخت في وجهه:

– أفق من أحلامك، أنت لي وحدي إلى يوم الدين، وسوف أبقى لك فيما بعد ذلك من الحور العين، هذا إذا لم نذهب سويًا إلى الجحيم.

محبوبتك القديمة قد رحلت، فقط يُمكنني أن أجعلك تذهب إلى قبرها وتقرأ عليها الفاتحة في ذكراها السنوية، وليكن في علمك أني لن أتركك معها لمدة تزيد عن دقيقة واحدة، وإلا سوف أدفنك إلى جانبها لأقرأ عليكما الفاتحة سويًا.

******

«اللقاء الأول»

أتذكر جيدًا حينما كنُت في مدرستي واحتضنتني إحدى صديقاتي من الخلف واصطحبتني ناحية الحمام. بالداخل أشارت ناحية مؤخرتي حيث لا أرى، أخبرتني أن هنالك بقعة دم حمراء، أخبرتني أني قد بلغت ومن اليوم أصبح بإمكاني الزواج، نظرتْ إلى وجهي وملامحي المذعورة أن لا داعي للقلق.

وحينما وصلت منزلي هذا النهار وأخبرت والدتي، تساقطت الدموع من عينيها، ثم فتحت درجًا من دولابها مليء بأحجبة الرأس، طلبت مني أن أنتقي واحدًا كي أذهب به إلى مدرستي في الغد، أخبرتني أنه من اليوم لا بُد وأن أرتدي حجاب الرأس.

كان ردي تلقائيًا لا تشوبه سخرية؛ حينما أخبرتها أن الدم قد سال من رحمي لا من رأسي، وكان ردها أنها هكذا سوف تطمئن أكثر، ثم ناولتني «حفاضة» بعد أن أطلقت ضحكة عالية، وقالت: «هذه هي حجاب الرحم».

وحينما بَلَغَ أخي مثلي، أحضرت أُمي في منزلنا خادمة حتى تتطمئن عليه ويختبر عليها فحولته الذكورية، فقد كُنت أستمع ليلًا إلى صوت هزات الفراش مُختلطة بصوت الآهات المُتقطعة الصادرة من أخي والخادمة، بينما أنا أعبث في دُرج الأحجبة بحثًا عن حجاب الغد.

******

«الجوع كافر»

الجوع.. فقط هو كل شيء، الإحساس بالحاجة إلى الطعام، هرمونات تتلاشى، وهرمونات تُفرز، تقلصات المعدة، انخفاض نسبة السُكر في الدم، الغضب، العصبية، انحراف السلوك في التعامل مع الآخرين، فُقدان الطاقة، فُقدان التركيز، عدم السيطرة على النفس وضبطها.. تلك الأحاسيس التي تنتابك وأنت جائع. هل تتذكر شعورك في شهر رمضان؟ هذا الصيام الذي يمتد لساعات عديدة، تتماسك وأنت تُصبر نفسك بأن هنالك وجبة في انتظارك، فما بالك إن لم يكُن هنالك هذه الوجبة من الأساس وفي جميع الأشهر؟!

الفقر، العوز، الحاجة؛ معدتك خاوية لأيام وأشهر وسنوات، ليس هناك أحد يمد لك يد العون، ترى بعينيك وتستنشق بأنفك طعامهم ورائحته بين كل حين والآخر، ترى الجميع يأكل في نهم وأنت قد جف لسانك وتشقق من قلة الطعام، فتكتفي فقط بالنظر، وتُطلق العنان لخيالك وأنت تُضاجع طعامهم.

بالطبع الطعام صالح للمُضاجعة؛ ألم تتغزل في حلاوة الطعام من قبل؟ في رائحته النفاذة التي تستثير غرائزك الحيوانية التي قد تجعلك تلتهمه كالحيوان المُفترس؟ ألم تُخرج أصوات وتأوهات تلذذك بالطعام من قبل؟ ألم ينتابك شعور بالقرف المؤقت من الطعام الذي كنت تغتصبه مُنذ قليل حينما تمتلئ معدتك عن آخرها؟ هذا الشعور بالندم الذي ينتابك بعد أن تُضاجع سيدة وتُطلق حيواناتك بداخلها، تلك الرغبة

في الشعور بالاستحمام في الحال.

هنالك أشخاص تموت يوميًا من الجوع وآلامه، هؤلاء الأشخاص بحثوا كثيرًا عن لقمة تضل طريقها إليهم، ربطوا معدتهم بحبال من الخوص حتى يعدموا شعورهم بالجوع ولكن دون جدوى!

لا يخفى عنك أن مُعظم جرائم القتل قد ارتُكبت باسم الفقر والجوع والحاجة إلى المال، ومن ثم الطعام؛ والجُزء المُتبقي من الجرائم سوف تجده قد ارتُكب باسم الجنس.. وكلاهما واحد.

الفقر والجوع والحاجة إلى الطعام.

الفقر والجوع والحاجة إلى الجنس.

حينما تجوع لا يُشكل لك نوع الطعام أهمية، المهم أن تملأ معدتك، وحينما تجوع لا يُشكل لك نوع الطعام أهمية المهم أن تُفرغ عضوك وتُشبع حاجتك، فول وطعمية، فتاة مُجببة، كباب وكفتة، سيدة أربعينية، فراخ مشوية، فتاة مُنتقبة، الخضروات بأنواعها، فتيات الليل، سمك وجمبري، سيدة عجوز، فسيخ ورنجة، امرأة حامل في شهورها الأخيرة، بيتزا، طفلة لم تبلغ بعد، بقايا خبز ناشف، سيدة مُشردة فقدت عقلها.

الجوع القاتل؛ يجعلك لا تُفرق بين الوجبات، يقتل هذه الرفاهية داخلك، ولاحظ الفرق بين الجوع القاتل وبين الطمع والجشع، هنالك مُتحرش جائع وهنالك مُتحرش طماع جشع، وهذا الثاني هو الذي يستحق العقاب، لأن لديه طعامًا، ولكنه يرغب في المزيد منه، حتى وإن كان يملك الخبز الناشف ولكنه يرغب في اللحم، أو كان يملك اللحم

وبعد أن مل منه أصبح يرغب في أن يبلل الخبز الناشف ويأكله، هذا هو من يستحق لقب مُتحرش.

حتى الدعارة فقر وجوع إذا كانت الفتاة لا تملك سوى جسدها بضاعة حتى تستبدلها بالمال، ونحن الفقراء الجوعى نشعُر ببعضنا البعض ولا نستمع إلى كلام هؤلاء الأغنياء الذين يسكنون ويتزوجون ويتكاثرون ثم يُشيرون نحونا ويقولون: «مُتحرشون، تُحركنا غرائز حيوانية»، ولكن أنا على يقين بأن لنا الجنة بطعامها ونسائها.

******

«الوشم»

رأيتها في المطعم وأنا أتناول الغداء مع زوجتي وابنتي التي لم تبلغ من عمرها الخامسة، لم تتذكرني هي، ولكني تذكرتها جيدًا حينما دققت النظر في ملامحها، فهي ما زالت مُحتفظة بها.

كنا أطفالاً حينما أحببتها قبل أن نعلم معنى الحب، فقط نترنح ونتخبط بين أحاسيس جديدة، أُعجبت بالصليب الموشوم على مِعصمها، فطلبت منها أن تصطحبني كي أضع صليبًا مثله.. وقد كان، وحينما عُدت إلى المنزل وبينما أتناول الغداء، تناول أبي يدي في حِدة، أخذ يصفعني على وجهي يمينًا ويسارًا ويركلني في شتى أنحاء جسدي، بينما يصرخ بمُصطلحات لم أكن أعلم مغزاها.. «مسلمين، مسيحيين، الله، ابن الله».

أحضر جميع أنواع المُنظفات كي يمحو الصليب عن مِعصمي، ولكن الوشم ظل كما هو وكأن الصليب يتعمد إثارة غضبه.

ولم أفق من غياهب الذكريات سوى على صوت ابنتي وهي تسألني عن سر الحرق في مِعصمي، فأجبتها:

– لم تمحُ الصليب سوى مياه النار، ولكن لن يمحو ذِكراها أحد.

******

«الإناث حيوات»

اعتدل قليلًا من وضع استلقائه على ظهره بعد موت عميق، فتح عينيه فلم يجد سوى اللون الأبيض يقترب منه بشدة تجعله يراه أسود، تذكر حالته، تمطع بشدة حتى ينزع عنه الكفن المُحاوط بجسده، خرج من داخله ليجد نفسه عاريًا تمامًا، وقف يفرد عظام جسده قليلًا وهو يستمع إلى طقطقات مفاصله في هذا القبر الضيق، عبث قليلًا بداخل الكفن حتى أخرج علبة سجائر «مارلبورو» حمراء وولاعة فضية اللون، وضع السيجارة في فمه ثم أشعلها ونفث دخانها بشدة في سقف القبر، صرخت به زوجته الواقفة أمام قبره في عبائتها السوداء بعد أن قطعت قراءتها لسورة الفاتحة على روحه:

– كم مرة أخبرتك بألا تُدخن على غيار الريق؟ تناول أي شيء، كوب ماء على الأقل، معدتك خاوية كعقلك.

واصل التدخين غير مُبالٍ لقولها وهو يلعن إناث الدنيا زوجات، ثم ألقى سيجارته فجأة تحت قدمه الحافي ودهسها بعنف، كان ذلك حينما استمع لخطوات والدته القادمة نحو قبره وهي ترتدي قميص نوم بنفسجي اللون لا يتماشى مع سنها ولا جسدها المليء بالترهلات والتجاعيد، أخذت والدته تستنشق الهواء حول قبره، ثم سددت نظرها نحوه:

– هنالك رائحة دخان سجائر، إنت يا واد رجعت تشرب سجاير تاني؟ والنعمة لأقول لأبوك.

كل مرة يتراجع في أن يُخبرها بأنه كان يُدخن السجائر يوميًا مع والده،

ولكن لعنة الله على إناث الدنيا بعقول الأمهات، سدد نظرته نحو سقف القبر:

– والله مش أنا، ده سواق التاكسي اللي كُنت راكب معاه، وكمان الأسانسير كان مليان ريحة سجاير.

سجدت والدته على قبره بعدما ألصقت أنفها في الأرض تتشمم:

– طيب شممني ريحة بُقك.

ولكنها بالطبع لم تستطع أن تتبين رائحة دخان السجائر من رائحة فمه العطنة، فولته ظهرها وأخذت تطبخ غداء اليوم قبل عودة زوجها من العمل، استنشق رائحة خلطة أرز المحشي بشدة حتى سرت داخل جسده، بينما تفترش والدته على قبره تقوم بحشي ورق الكُرنب المسلوق، مد كف يده وسحب ورقة كرنب مسلوقة، ولكن والدته ضربته بظهر الملعقة على كف يده:

– مش كل مرة هتخلص لي ورق الكرنب قبل ما أحشيه، وبعدين بطنك تتنفخ وإنت قاعد في أوضة متر في متر، تتخنق من ريحتك تموت تاني.

ألحقت الأم حديثها بضحكة مجلجلة، بينما أحنت زوجته ظهرها نحو شاهد قبره قليلًا في نظرة تحقيقية مُتشككة ثم انتزعت بأصابعها خصلة شعر طويلة كالحة السواد كليلته، برزت العروق من رقبتها وأخذ وجهها يتلون بأمارات الغضب.

– الشعراية دي بتعمل عندك إيه هنا يا راجل يا ناقص؟ يا راجل اتهد إنت مش عاتق نفسك حي وميت، والله حتى الفاتحة خسارة على روحك.. أنا ماشية؟

الأم مُستمرة في ضحكها:

– يا بت استني أما تاكليلك لقمة ما يبقاش عقلك صغير، الواد ميت يخرب عقلك.

سمع صوت طرقات على باب القبر بالخارج فاتجه نحوه ليفتحه فوجد أمامه مجموعة ضخمة من صديقاته الأطفال، كلهن إناث عارية أجسادهن، مطلية باللون الأصفر البرونزي، لا يوجد ذكر واحد بينهم سواه، وجد نفسه أيضًا طفلًا عاريًا مطليًا باللون الأصفر البرونزي، مفاجأة بالاحتفال بعيد مولده، هدايا وبالونات طائرة بألوانات مُبهجة، وكعكة تحمل اسمه ورقم ثمانية:

– كل سنة وإنت طيب وعقبال مليون سنة موت.

اختفى الجميع بمُجرد سماعهم لنباح كلبته الشديد بالخارج وهي تنبش في التراب بأقدامها رغبة في الوصول إليه. لعنة الله على الإناث أطفالًا يخشون كلبة يملؤها الوفاء لمُجرد صوت نباحها، واصلت الكلبة حفرها ثم قضت حاجتها بداخل الحفرة ثم ردمتها مرة أخرى، وانصرفت. لعنة الله على الإناث كلابًا.

عاد وأخرج بعض الأوراق ووضعها أمامه، أخذ يقلب ويُدون أشياء كثيرة، دخلت عليه ابنته الصغيرة:

– بابا.. كفاية شغل، عشان خاطري قوم العب معايا شوية.

حاول النهوض ولكنه لم يقدر، لحظتها فقط أدرك أنه قد انتهى، لعنة الله على الإناث حيوات.. قرأ الفاتحة على نفسه، ثم أعاد جسده بداخل الكفن الأبيض!

******

«حياة»

كانت وحيدة في المنزل ليلًا، ترتدي قميص نومها الذي أحاط بطنها المُنتفخة؛ شَعَرَت بقدوم ميعاد ولادتها ولم تستطع أن تتحمل الألم، التقطت مفاتيح السيارة صارخة، أخذت تترنح بالسيارة يمينًا ويسارًا، تُهون على نفسها بالحديث – كما اعتادت – إلى طفلتها التي تُخفيها داخل بطنها المُنتفخة، حدثت طفلتها عن كل ما ينتظرها فقط بعد دقائق معدودة، عن ملابسها الرقيقة، عرائسها، غرفتها الوردية، الأحاديث التي سوف تدور بينهما في ظل غياب والدها طوال الوقت، لم تشعر سوى بارتفاع السيارة عن الأسفلت بعد ارتطامها بالرصيف الذي جعل السيارة تنقلب مرات عديدة حتى استقرت على عقبها.

اجتمع الخلق حول السيارة في ترقب مُحاولين إنقاذ السيدة، ولكن بعد أن أخرجوها وجدوها غارقة في دمائها وهي شبه عارية بعد أن فارقت الحياة، وفي تلك اللحظة ترامى إلى آذانهم من داخل السيارة صوت بكاء وصريخ صادر عن طفلة تبحث عن حياة قد وُعِدت بها مُنذ قليل.

******

«جنيه يبتاع حياة»

لم تتبقَ له من الحياة سوى أُمه، حتى هذه لم تعد باقية له.. فقد رحلت في غرفة في حجم قبر بالكاد يتسع لجثتين، أعياها المرض وهي ما زالت شابة لم تتجاوز مُنتصف العشرينات، ولكن المرض أخذ يمتص من جسدها دون حساب، سحب صندوقًا خشبيًا مُتهالكًا وصعد عليه حتى يصل نحو فتحة الشباك، طفل لم يتجاوز بعد الست سنوات من عمره، يحتضن بكفيه قضبان الحديد الصدئ في الشباك حتى يرى أقدام الناس فقط لا غير.. كانت الغرفة أسفل الأرض، كل البيوت تصعد نحوها بسلالم، إلا بيته ينحدر للأسفل حتى يصله.

هو إلى الآن لا يعرف معنى الموت، لا يعرف أن والدته قد رحلت، ربما ترجم الموت إلى انتهاء، كرغيف عيش يقضم فيه قضمات متتالية حتى ينتهي، هو فقط كان يراها مُنهكة طوال الوقت، ترقد على الفراش، تحتضنه بين كل حين والآخر، تبلل وجهه بالدموع، تسأله بصوت مُتقطع:

– هل.. أنت... جائع؟

يخبرها دومًا بهزات رأسه إيجابًا، فيزداد بُكاء والدته بعُنف، يجدها تتحامل وهي تتألم وتنزع عن جسدها الملاءة المُهترئة، تقف على قدميها، تترنح قليلًا حتى تصل نحو باب الغرفة فترتطم بشدة على الأرضية، تعاود المشوار زحفًا وسط عجزه الطفولي.

آخر ما وضعته والدته في كف يده كان جنيهًا ورقيًا قد أذابه العرق

وملأته الشقوق، ودع جثة والدته الراقدة تحت الملاءة، واحتضن الجنيه وقرر أن يسد جوع الأيام الماضية، خرج من باب الغرفة المفتوح دائمًا وصعد بضع سلالم حتى يصل للشارع.

أثارت شهيته رائحة دخان المشويات المُتصاعد من «مدخنة الحاتي»، دخل وفرد قبضة يده ليظهر الجنيه الورقي، سائلًا صاحب المطعم أن يعطيه أي شيء يؤكل من هذا الطعام مُقابل الجنيه، ابتسم الرجل وأخبره:

– حتى روث البهائم لا يُمكنك شراءه بهذا الجنيه.

– ولكن هذا الجنيه ذا قيمة، إنه من والدتي وآخر ما تبقى لي منها.

خرج الطفل، وأخذ يتجول في الشوارع حتى وجد محل أسماك، دخل وفرد قبضة يده ليبرز منها الجنيه الورقي المُهترئ، وسأل صاحب المطعم أن يُعطيه أي شيء يؤكل من هذا الطعام مُقابل جنيه، أمسك الرجل بطبق ورقي بين يديه ووضع به ملعقتين من الأرز البني وأعطاها للطفل.

– وخللي الجنيه ده معاك.

– لا.. أنا لا أريد أرزًا فقط، أريد من هذا وهذا وهذا وهذه وهذه وهذا. وسأعطيك جنيه أمي في المقابل.

– يا بني.. هذا الجنيه يُمكنك أن تبتاع به مصاصة، أربع لبانات، باكو بسكويت، كيس لب أسمر، شقة فول، هكذا...

– ولكن هذا الجنيه ذا قيمة، إنه من والدتي وآخر ما تبقى لي منها.

– في هذه الحالة، الشيء الوحيد الذي يجعل لجنيه أمك قيمة أن تكون أمك راقصة مشهورة.

–لا أتذكر أني رأيتها ترقص من قبل، المرض لم يجعلها قادرة حتى على الوقوف.

استمر الطفل كذلك من هذا المطعم إلى ذاك، ولا يريد أن يتنازل عن وجبة دسمة للغاية يُقابلها دسامة قيمة الجنيه عنده، سمع ما يُرضيه وسمع ما يُؤذيه في كثير من الأحيان، ولكنه لم ينل ما يُريد.

جرب أن يُمتع نفسه بمُشاهدة فيلم في السينما بالجنيه ولم يقدر، وجرب دخول الملاهي أيضًا ولم يستطع، تنازل كثيرًا وقرر أن يجلس على مقهى بلدي مُشيرًا بإصبعه نحو كوب من الزبادي فواكه ذي الطبقات المُتصلة المُنفصلة، ولكنه لم ينله أيضًا.

لاحظ أنه لا يُخاطب وجوه الأشخاص بل يُخاطب أقدامهم فقط من كثرة تعوده على عدم رؤيته لغيرها من شباك غرفته.

هو غير جائع أو عطشان أو في حاجة إلى اللعب بعد انتهاء والدته، هو فقط يبحث عن شيء ذي قيمة توازي قيمة هذا الجنيه الورقي عنده، حتى وإن كان الجنيه في المُطلق لا يُساوي شيئًا، الأشياء تزداد قيمة بمُجرد مرور الزمن عليها حتى وإن كانت لا تُساوي شيئًا، خطوط الفنان على لوحة بيضاء تجني الملايين لمُجرد إمضائه عليها، منديل طُبعت عليه قبلة حمراء قد يُساوي للحبيب كنوز العالم.

عاد مُنهكًا في نهاية يوم شاق نحو شارعه وهبط السلالم، وجد والدته ما زالت جثتها مُستلقية على الفراش، ولكنه وجد إلى جانبها طفلة نائمة في نفس عُمره تقريبًا أو تصغره بعام، ترتدي ملابس مُتسخة مُهترئة، أيقظها من النوم، وأخبرته وأخبرها، تحدثا طويلًا دون قيود أو شكوك، حدثته عن والدها ووالدتها وأخواتها الكثيرين، وحدثها عن

والدته المُنتهية وقصة الجنيه الورقي وآخر ما تبقى له منها، عرضت عليه أن تأخذ منه هذا الجنيه مُقابل أن تسكن هي معه في الغرفة وتؤنس وحدته طوال العمر.

فكر قليلًا.. فقد ارتبط بها وأحبها وشعر بقيمتها بالفعل، ولن يكون له ونيس بعد والدته، وبعد أن اشترط عليها ألا تمرض وترحل كوالدته، وبعد أن وعدته، فرد كف يده ليبرز من داخله الجنيه الورقي المُهترئ، نزعته ووضعته في جيبها في لهفة، وسط ضحكهما ولعبهما وقصصهما التي لا تنتهي.

مرت عليهم الأيام والشهور والسنون في تلك الغرفة أمام نفس الشباك ذي القضبان الحديدية الصدئة كأصدقاء دون زواج، لا يُشاهدون سوى أقدام الناس ولا يُخاطبون سوى أقدامهم، وفي إحدى الأيام وجدها تهديه هذا الجنيه الورقي الذي قد أذابه العرق وملأته الشقوق.

******

«القفص»

كُنت في صِغري نحيفًا للغاية، هيكل عظمي يتجول وسط المدينة، عظام يكسوها الجلد، وفي يوم ما بينما أجلس في الفصل مُوجهًا نظراتي نحو المدرس وذهني شارد عنه، وجدته يُشير نحوي مُحدثًا الطلاب: «في هذه الحِصة سنتناول موضوع القفص الصدري».

طلب مني أن أخرج كي أقف إلى جانبه، ثم أمرني بأن أنزع قميصي عني في أشد الأيام برودة لأقف عاريًا أمام جميع الحضور، ثم بدأ في شرح القفص الصدري بعصاه الخشبية الرفيعة على قفصي الصدري، وعن عدد عظام القفص الصدري.

وفي ليلة الامتحان، وجدت في الورقة سؤالًا عن عدد عظام القفص الصدري، ولا إراديًا وضعت يديّ على صدري وبدأت في العد، وبينما أنا كذلك وجدت الجميع ينظر نحوي في نهم طالبين بأعينهم أن أنزع ملابسي كي يغشون إجابة السؤال!

******

«رسالة عبر الحبل السُري»

أُمي.. أحدثك من داخل بطنك المُنتفخة عن آخرها تُنذر بانفجار يقذفني للخارج في أي لحظة، أتقلب بالداخل يمينًا ويسارًا فرحة للغاية بمُجرد أن أشتم رائحة «الجِل» الذي يوضع على بطنك، أعلم جيدًا أنه قد حانت اللحظة التي سوف تُشاهديني فيها أنتِ وأبي وأنا بالداخل، أنا كذلك أراكم من خلال تلك الشاشة، أراكِ وأنتِ مُستلقية على ظهرك على الفراش، أستمع إلى دقات قلبك التي تتسارع بشدة، ألمح الابتسامة على وجهك، الدموع المحبوسة في عينيك، أرى أبي واقفًا أمام الفراش وعينيه سوف تخرج من جمجمته وهو يحاول تفسير المشهد وتبين ملامح جسدي على شاشة السونار.

غرباء هؤلاء الأطباء، في البداية يُخبرونك بأن هناك كيس مياه صغير على مبيضي، قد يزيد حجمه وقد يقل حتى يختفي تدريجيًا، أنا لم أكن أشعر بشيء من هذا القبيل، وما زلت لم أشعر به، لم أشعر سوى بدقات قلبك التي تسارعت بشدة حزنًا وقلقًا وتوترًا.

يُخبرك الطبيب بأنها قد تكون بسبب هرمونات الأم، فأتذوق دموعك المالحة بالداخل وحرقتك وشعورك بالذنب، تُخبريه بأنك تريدين هذا الكيس على مبيضك أنتِ ليس أنا، تُخبريه برغبتك في تحمل كل أمراض الدنيا عني.

أشعر بأبي في تلك اللحظة يحتضننا سويًا حتى تسكن روحنا وتستقر، تهدأ دقات قلوبنا وتشملنا الطمأنينة، يتملكنا النوم في سبات عميق،

يظل هو مُستيقظ يرمقني بنظرة حانية من خلال بطنك المُنتفخة ألا أُخيب ظنه أبدًا.

غرباء هؤلاء الأطباء؛ في زيارة أخرى يُخبرك الطبيب بأن هناك مياه كثيرة جدًا حولي بالداخل، يتحدث بنبرة روتينية ميكانيكية مُملة خالية من المشاعر: «الحجم الطبيعي للمياه من عشر إلى عشرين، ولكن المياه حول جنينك ستة وثلاثين، والسبب في تراكم هذه المياه هو ضيق – وربما انسداد – في بداية أمعاء الجنين بعد المعدة.

كان هذا هو رأي متخصص السونار، تبكين بحرقة يا أمي وتصرخين وأنا أهتز بالداخل غير قادرة على طمأنتك أو احتضانك، غير قادرة على مسح دموعك بأصابعي المنمنمة، وبابتسامة على شفتي – التي تُشبه شفتيك كثيرًا – تطلبين من أبي أن يصطحبك حالًا لاستشارة طبيب أطفال.

كم أحببت هذا الطبيب الذي على الرغم من سنه المُتقدم كان يضع حول رقبته سماعة الكشف على شكل دبدوب مُستلقي حول رقبته، برتقالي اللون، أشعَرني بالبهجة لمُجرد رؤيته، شرح له أبي الموقف وسبب حضورنا إليه قبل ولادة الطفلة وسط بكاؤك الحاد، بعد تمعن الطبيب في التقارير كانت نبرته حانية – وأضاف إلى كلام الطبيب السابق – «لا بد وأن تحمدا الله أنكما اكتشفتما ذلك من السونار قبل ولادتها، في الواقع هذه الحالة يكتشفها الأطباء حينما يولد الطفل ويبدأ في الرضاعة لمدة شهر أو أكثر، تظهر عليه أعراض الارتجاع وارتفاع الحرارة وغيرها، وبعد الفحوصات والكشف.. يظهر هذا الانسداد في المعدة فيتم إجراء عملية جراحية للطفل، أما في حالتكما سوف يتم إجراء العملية لها

بمُجرد ولادتها، وهذا سوف يوفر عليكما شهرًا أو أكثر من المعاناة مع الطفل دون معرفة السبب».

بمُجرد سماعك إلى كلمة «عملية جراحية» زاد حزنك وبُكاؤك ونحيبك، تضعين يديك حول بطنك المُنتفخة وتضغطين على جسدي بالداخل وبشدة، كأنك تمنعين الأيادي التي سوف تمتد نحوي، طلبتي من أبي أن تذهبا حالًا إلى طبيب مُتخصص في جراحة الأطفال لمعرفة رأيه.

«سوف يتطلب الأمر أن توضع الطفلة في الحضانة بعد ولادتها لمدة ثلاثة أيام تقريبًا حتى يستقر وضعها ونجري الأشعات والفحوصات اللازمة، وحتى نرى أن جسد الطفلة قابل لإجراء عملية جراحية؛ لفك الانسداد أو قطع هذه المنطقة الضيقة ووصلها بالجزء الأوسع من الأمعاء».

أشعر بأبي في تلك اللحظة يحتضننا سويًا حتى تسكن روحنا وتستقر، تهدأ دقات قلوبنا وتشملنا الطمأنينة، يتملكنا النوم في سبات عميق، يظل هو مُستيقظ يرمقني بنظرة حانية من خلال بطنك المُنتفخة ألا أُخيب ظنه أبدًا.

أرى أبي وهو يوقظك في هذا اليوم لصلاة الفجر، تُصلي خلفه وأنت جالسة غير قادرة على القيام، تبكي وتدعي الله وتستغيثي به، يأخذك الدعاء وتنسين الوقت حتى يعود بك أبي إلى الفراش لتُكملي نومك.

في تلك اللحظة، أُشارك أبي أحلامه.. كان أبي في هذا الحلم يقف في أرض صحراوية قاحلة شاسعة، لم يكن يعلم شيئًا في تلك اللحظة سوى أن اليوم هو عيد الأضحى، وفجأة: التفت حوله خراف ذات فروة كثيفة ناصعة البياض كالثلج، وكانت أعدادهم كبيرة للغاية، وهم ملتفون حوله غير قادر على رؤية آخرهم من كثرتهم، لم يكن أبي خائفًا في

تلك اللحظة.

وبعد لحظات.. وجد أبي عجولًا ضخمة للغاية، كل عجل فيهم يُشكل ارتفاع طابق على الأقل – طولًا وعرضًا – وكانت أعدادهم ضخمة كذلك حتى أنه لم يستطع رؤية آخرهم، ولكن هذا المشهد قد أثار الرعب قليلًا في نفسه، وجد رجلًا – لم يتبين ملامحه – على هضبة ترتفع عنه يأمره بالصعود، فيُخبره أبي بأنه غير قادر على ذلك وأعصاب قدميه لا تحمله، مد الرجل كف يديه إلى أبي وأصعده فوق الهضبة.

استيقظ أبي من نومه مُصطحبًا إياكِ يا أمي وأنا بداخلك إلى إحدى محال الجزارة، انتقيتما هذا الخروف الذي ضحيتما به من أجلي ولأجل شفائي، أسمع دعواتك وأنتِ تُشاهدين الدم الأحمر ينبثق وينسال من رقبة الخروف بينما روحه تصعد إلى السماء: «اللهم منك وإليك.. اللهم منك وإليك»، وأستمع إلى دعوات أبي: «اللهم اجعل الشفاء بكلمة منك دون أن تمتد إلى جسدها الضئيل الأيادي».

فقط تذكري أني لم أخذلك من قبل، مُنذ اليوم الأول، حينما شككت في وجودي، وأجريت تحليل الحمل، وجعلتي أبي يدخل بمفرده لمعرفة نتيجة التحليل وانتظرتيه بالخارج، أخبره الطبيب بأن هناك نسبة ضئيلة لهرمون الحمل، ولكن قد يكون الحمل خارج الرحم، وعليكما الانتظار خمسة أيام للتحليل مرة أخرى ومعرفة الخبر اليقين، وكان أبي يُبلغك الخبر محيادًا للغاية، تسألينه عن النتيجة فيُخبرك بوجودي وبعدمه في نفس الوقت.

أعلم جيدًا أني أضعكم في حيرة لا معنى لها طوال الوقت.

هل تتذكري حينما ذهبنا سويًا – ثلاثتنا – بعد خمسة أيام من الحذر

والحيرة والفرحة والحزن والأحلام والكوابيس، وإخفاء الخبر عن الجميع حتى يتبين وجودي من عدمه؟ كنتُ أنا الوحيدة التي على يقين بوجودي، كانت النتيجة إيجابية وعلينا المُتابعة مع طبيب أمراض النساء خلال أشهر الحمل، وركضنا ثلاثتنا على الأهل وأخبرتماهم بوجودي بالداخل.

وتذكري أني لم أخذلك حينما ذهبنا أول مرة إلى طبيب أمراض النساء وأخبركِ بأنه لم يجد كيس الحمل بعد، وأن هذا الهرمون ربما يوجد لمُجرد مشاكل في هرمونات جسد الأم، وقال في نبرة ميكانيكية: «عليكم بالتفاؤل الحذر!».

واعلمي جيدًا أنني داخلك بخير، ولن أُخذلك في هذه الحياة، ربما أصبحت أنا يومًا ما طبيبة جراحة الأطفال المُتخصصة في إجراء مثل تلك العمليات لمن يحتاجونها، لا يُهدر الوقت سوى الانتظار، وإن انتظرنا ضياع الوقت فلن ننال سوى الانتظار دون ضياع الوقت , وأنا هنا في انتظار أول حضن يجمعنا وأول قبلة تطبعينها على جبيني الدافئ.. يا أُمي.

******

«الاستُغماية»

قرر أن يلعب مع ابنته الصغيرة لعبة الاستغماية، أخفى وجهه في الحائط زاعقًا:

١٠ – ٢٠ – ٣٠ – ٤٠ – ٥٠ – ٦٠ – ٧٠ – ٨٠ – ٩٠ – ١٠٠

خلاويص؟

لسه

خلاويص؟

لسه

أًحسنت ابنته الاختفاء، حتى أنه لم يحصل عليها بعد مرور سنوات من البحث! وإلى اليوم يستيقظ من نومه فزعًا والابتسامة تعلو وجهه زاعقًا:

– خلاويص؟

ولكن..

لسه.

******

«التجرُبة»

عُدت كالعادة من مدرستي لأجد أمي وأبي وإخوتي يتحلقون حول «الطبلية» على الأرض في انتظاري لتناول الغداء، ولكني كُنت مُتسمرة في مكاني حينما ألقيت عليهم القذيفة بسؤالي:

– هل بالفعل سوف تضعوني في حُفرة عميقة مُظلمة ثم تُلقون على جسدي التُراب حينما أموت؟!

كيف لطفلة بريئة ما زالت ضفائرها تتدلى على كتفيها أن تسأل مثل هذا السؤال، ولكني لم أجد ردًا إيجابيًا سوى بعض الدمعات التي سالت من وجه أمي وبعض الضحكات التي تعالت من إخوتي، والوجوم الذي حل بأبي، ونهرهم لي بألا أتحدث مرة أخرى في هذا الموضوع.

ولكني ظللت أبحث – ليس عن الرد – ولكن عن إحساسي وأنا أختنق تحت التراب فأخذت أتمرن على ذلك حتى لا أعاني لحظتها.

حينما كُنا نذهب إلى الحديقة كُنت أتوارى عنهم وأحفر قدر استطاعتي ثم أنام بداخلها وأهيل التراب على جسدي من ذات اليمين وذات الشمال حتى أصل إلى وجهي وأتذوق مرارة حبات الرمل في فمي وحرقتها لعيني ولزوجتها في أنفي وأذني فأنهض مرة واحدة أركض إلى أهلي وأتوسل لهم بأن يعدوني بعدم فعل ذلك حينما أموت، صفعتني أمي على وجهي حينما رأتني أُكرر التجربة على إحدى الشواطئ أثناء عُطلتنا السنوية، ثم أجهشت بالبكاء واحتضنتني إلى صدرها الدافئ المُبلل بالدموع وهي تعدني بألا تفعل ما يُخيفني.

وبالفعل؛ انتهت محاولاتي ثقة في وعود أمي النافذة، ولكني حينما غرقت في بحار إحدى الشواطئ ومُت لم تفي أمي بوعدها لي حينما وضعوني داخل الحفرة وانهال التُراب على جسدي من كل الاتجاهات دون رحمة، كُنت أصرخ بالداخل: « يا لنفاقك وحنثك بالوعود ».
ولم يغفر لها سوى أني لم أشعر بالاختناق.. لم أشعر سوى بالاشتياق.

******

«تشريح»

وجد حماره – مصدر رزقه الوحيد – مُلقى جثة هامدة في تلك الحارة دون نبضات قلبه، أقسم أن الحمار قد مات بفعل فاعل لأنه كان في «عِز شبابه»، ومن المُفترض ألا يطرق الموت أبوابه في ذلك التوقيت.

أخذ يتشكك في هذا الرجل الذي ربما يكون قد خنقه، وتلك السيدة التي وضعت له طعامًا مسمومًا، وهذا الطفل المُشرد الذي طعنه في مؤخرته، وذلك الشيخ الأعمى الحاقد على نظر حماره، بل أخذ يتشكك في نفسه بأن تركه جائعًا بلا طعام أو ربما قد قسى عليه بعصاه في كثير من الأحيان.

جمع أهل بيته وأصدقاءه المقربين، واستشارهم في الأمر، بل عرض مكافأة مالية لمن يستنتج سبب وفاة حماره.

كثُرت الاستنتاجات والخُرافات، حتى اقترح عليه أحدهم بأن يلجأ إلى تشريح الجُثة، ذلك الفحص الدقيق الذي يتم لتحديد سبب وطريقة الوفاة، وحينما تم تشريح الجُثة بالفعل، وتم شق البطن، ثم تم إعادة تشكيل الجثة كما كانت، وجد أن الحمار لم يكن توفى من الأساس، وأن سبب الوفاة الحقيقي هو التشريح!

******

«الكواليس»

دخل هو وزوجته التي تحمل طفلها الذي لم يُكمل بعد شهره الأول، هو ليست لديه أية خبرة في التمثيل، حتى أنه لا يملك من الأساس تلفازًا يشاهد عليه الأفلام والمسلسلات، ولا طموح له في أن يُصبح ممثلًا يومًا ما، ولكنه سمع فقط عن مكاتب التمثيل. هذه المكاتب التي يتقدم إليها كل من يرغب في التمثيل؛ ليسجل بياناته عن طريق فيديو، يشاهده المخرجون فيما بعد وسط آلاف الفيديوهات لآلاف المتقدمين حتى يختارون الشخص الأنسب للدور الذي يبحثون عنه.

فقرر أن يجرب حظه، مثله مثل أي عمل آخر لا يُتقنه، لم يجد عملًا آخر حتى يُنفق منه على زوجته ورضيعه، لم يُجدِ بيع المناديل وبيع الفل في الإشارات، ولم يُجدِ التسول و «تركين» السيارات ومسحها، حتى زوجته – وإن كانت قادرة على تنظيف المنازل من قبل – ففي فترة حملها وبعد الوضع، لن تُصبح قادرة على مواصلة العمل، حتى أنها خسرت في تلك الفترة جميع زبائنها.

وقف أمام الكاميرا التي لم يرها في حياته من قبل، سأله المخرج – الجالس أمامه خلف المكتب – عن سِنه، فأجابه، سأله عن طوله وعرضه ووزنه، فلم يعلم الإجابة، طلب منه المخرج أن يستدير يمينًا ويسارًا وينظر للكاميرا بابتسامة في كل مرة، فاستجاب بعد حيرته في الفرق بين اليمين واليسار، سأله هل قام بتمثيل شيء من قبل، فأجاب بالنفي، طلب منه أن يقوم بتمثيل أحد المشاهد التي يحفظها جيدًا، فلم تسعفه

ذاكرته بأنه قد شاهد التلفاز من قبل، فطلب منه المخرج أن يقوم بتمثيل بعض الانفعالات له: سعيد – حزين – غضبان – تائه – مُتفاجئ – حيران – ضحك هستيري - انهيار بعد بكاء – طيب – شرير؛ طلب منه المخرج تمثيل جميع الانفعالات، ولم يصدر منه سوى انفعال واحد فقط، هو اللاانفعال.

وبعد أن انتهى، خطرت بباله فكرة.. استأذنهم إن أمكن لزوجته أيضًا أن تُسجل بياناتها، فعادت الزوجة تمثل جميع الانفعالات؛ وهي تحمل رضيعها على صدرها، ولم تعبر جميع هذه الانفعالات سوى عن الحزن والشقاء الذي تعاني منه في الواقع، كرر كلاهما – الزوج والزوجة – ما فعلاه في أكثر من عشرين مكتب لتقييد بياناتهم حتى تكثر فرصهم في التمثيل في أحد الأدوار الهامشية ضمن الكومبارسات والمجاميع التي لا قيمة لها ولا غنى عنها في نفس الوقت.

ومن لحظة تسجيلهما والاتصالات من أكبر المخرجين تنهال عليهما دون توقف لأدوار رئيسية مع أكبر الفنانين، كانت العروض تتوالى دون توقف طالبين طفلهما الرضيع الذي لم يُكمل شهره الأول.. أفلام ومسلسلات وإعلانات، وأصبح الدخل الذي يجلبه لهما الطفل هو الذي يتولى مصروفاته ومصاريف البيت بأكمله.

ولكنهما لم يتخيلا أن الوضع بهذا الشقاء، لم يتخيلا أن الممثلين يتعرضون لهذا الكم من التعب والإرهاق، أقل يوم تصوير لا يقل عن الاثنتا عشرة ساعة حتى يظهر الطفل أمام الكاميرا بضع دقائق، ترى والدته نظرات اللوم والغضب في عيني المخرج ومساعديه إن بكى الطفل

في إحدى المشاهد الذي يريدونه فيها صامتًا، فيلقونه لها حتى تلقمه صدرها وتتولى إسكاته حتى وإن لم يكن جائعًا، وكثيرًا ما كان يصرخ الطفل جائعًا بشكل هستيري متواصل، ولا يعطيه المخرج لوالدته حتى ينهي جميع المشاهد التي يريده فيها باكيًا، كما أنهم يُجبرونها كثيرًا على إيقاظه في أوقات نومه العميق لأنهم يُريدونه في هذا المشهد مُستيقظًا، كما أنهم يُعرضونه دائمًا للأضواء الضخمة المسلطة على جسده أثناء التصوير، كما أن نفسه يتأذى من التراب المتراكم على ديكور وإكسسوارات المشهد، والدخان المتصاعد من أفواه الممثلين، وخاصة هذه الممثلة التي تقوم بدور والدته في الفيلم، ومن ثم تحتضنه وتقبله في المشاهد، طفل ما زال لم يكمل شهره الأول يتعرض لجميع ضغوطات الحياة فقط حتى يصرف على أهل بيته غير القادرين.

******

«وجهان لأم واحدة»

سُرقت حافظة نقوده، عاد إلى والدته باكيًا شاكيًا، صفعته على وجهه، وركلته بقدمها في معدته، وسحلته على الأرض من شعر رأسه حتى أصابه الصلع، أخبرته بأنه لا يستحق لقب رجُل.

سُرقت حافظة نقوده مرة أخرى، ذهب إلى الصيدلية، وابتاع موسى حلاقة، أصاب نفسه بجرح عميق في جبهته حتى سالت منها الدماء على عينيه، عاد إلى والدته يخبرها بأن قاطع طريق سرق حافظة نقوده وأصابه في جبهته، تناولته الأم بين أحضانها، وهي تحمد الله على سلامته، أخبرته بأن مال العالم كله لا يُساوي ظافره.

******

«ابتسامة خالية من الأسنان»

يسير في الحارة الضيقة كصدره بمُفرده في مُنتصف الليل، يحمل سنوات عمره التسعين الماضية على عُكاز خشبي مُتهالك، الليل موحش – خاصة في الشتاء القاسي – السماء مُلبدة بالغيوم، تنهمر منها الأمطار وسط رعد السماء وبرقها الذي يُنير السماء ويصُم الآذان، تتعثر خطواته كثيرًا لكنه يُواصل الطريق، انحناءة ظهره لا تجعله يرى سوى انعكاس وجهه في المياه الجارية أسفل خطوات قدميه وثالثهما عُكازه، خطوط التجاعيد منحوتة في وجهه، عيناه غائصة إلى الداخل تُزينهما تجاعيد جفونه المُنتفخة وشُعيرات حاجبيه وشاربه البيضاء.

لمح عند آخر الطريق سيدة عجوز في مثل عمره، تستند على عُكازها الذي انزلق منها فارتطمت بشدة على الأرض، أسرع خطواته في اتجاهها حتى بدأ في الركض قدر استطاعته، خانته قدماه هو الآخر فانزلق على الأرض وارتطمت رأسه بالأرض بشدة جعلته ينزف من شج في رأسه.

أخذ كلاهما يتحامل حتى يطمئن على الآخر، وقف الرجل العجوز مُكابرًا واتجه نحوها، وحاول أن يُساعدها في النهوض، ألقت بجسدها عليه، استندت عليه، أخذها وتوارى بحوش إحدى العمارات، أسند جسدها على الحائط بعد أن أجلسها على الأرض ثم جلس إلى جانبها، لمح في عينيها العجوزتين القلق عليه، ثم لامست بإصبعها الشج الذي في جبهته، ابتسم إليها مُطمئنًا إياها بابتسامة خالية من الأسنان، فبادلته مثلها ولكنها ابتسامة ما زالت تحمل القلق عليه.

ارتعش جسدها بشدة من البرد، نزع عن جسده «البلوفر» الصوف الذي كان يرتديه وألبسها إياه، هدأت رعشة جسدها قليلًا، وزادت انتفاضة مُنتصف جسده العاري سوى من «فانلة» داخلية بيضاء، كان يُسيطر على انتفاضة جسده بشدة فتظهر الانتفاضة مُضاعفة، احتضنت ذراعه ووضعت رأسها على كتفه وما زال صوت الأمطار ينهمر بشدة في الخارج، مر عليهما أكثر من ساعتين على هذا الوضع، ولم يتحدث أحدهما ولو بكلمة واحدة مُنذ أن تقابلا.

لم يشعر الرجل سوى والبول –الشيء الوحيد الدافئ في هذه الليلة– ينسال من أسفل بنطاله على الأرض، رائحة ليلة شتوية مليئة بالأمطار تمتزج برائحة بوله، سقطت نظرات عينيها على المشهد ثم سددت نظرها نحو عينيه، ارتعشت ملامحه وكادت أن تسقط دمعة من عينيه، سرعان ما وجد ملامح السيدة تحزِق بشدة حتى وجد البول ينسال منها أسفل التنورة التي ترتديها، ثم نظرت إليه تخبره ألا أحد أفضل من الآخر.

أمسك بكف يدها وألقيا العُكازين جانبًا، أوقفها من جلستها، سحبها خارج حوش العمارة إلى الشارع مرة أخرى، قاوم كلاهما انحناءة جسده حتى يتطلعا نحو السماء، تغسلهما الأمطار، احتضنها بشدة وسط ذهولها وخجلها، حملها ودار بها مرات عديدة حتى سقطا سويًا تُغرقهما الأمطار وعلى شفتيهما ابتسامة خالية من الأسنان.

******

«احتواء»

مُنذ جلوسه مع أصدقائه على القهوة، لم يتوقف جسده عن الانتفاض، وفجأة سمع الجميع من داخل جسده صدى صوت صرخة أُنثوية مكتومة، وُجهت جميع الأنظار نحوه، استأذن منهم في حرج، ركض عن أنظارهم وعن جميع الأنظار بعيدًا، أصبح الآن وحيدًا.

نظر إلى داخله قائلًا:

– ماذا تُريدين؟

قالت له في صوت مكتوم يصدر من داخله:

– أنا خائفة، أُريد الخروج من هنا.

قال:

– إنت التي طلبتي مني إن أحتويكي، تستقري بداخلي، أن أبتلعك، حتى تشعُرين معي بالأمان.

قالت في خوف ورجاء:

– ولكنك من الداخل مُظلم للغاية، وليس هناك أي مصدر للإضاءة.

قال لها في هدوء:

– أضيئي عقلك.

عاد لأصدقائه على القهوة، تناول خرطوم النارجيلة ووضعه بين شفتيه ليسحب نفسًا عميقًا، وفي تلك اللحظة سمع الجميع صدى صوت سُعال أُنثوي يصدر من داخله.

******

«الباطن»

منذ طفولتي وأنا أجد والدتي تهتم بالمظاهر دائمًا على الرغم من فقرنا الشديد، لن أنسى توسلاتي اللامُنتهية لها بأن تبتاع لي ملابس داخلية غير تلك التي أصبحت مُهترئة مليئة بالثقوب، أصبح الوسخ لا يُفارقها رغم أنها غُسلت آلاف المرات، كانت فقط والدتي تهتم بملابسي الخارجية مُبررة ذلك بأن ملابسي الداخلية لن يراها غيري، ملأتْ دولابي بالفساتين بجميع ألوانها وتصاميمها، وغيرها من الأطقُم والإكسسوارات والأحذية، فشلت كل التوسلات حتى تقدم لي زميلي في العمل، وبعد حفل الخطوبة أصبحت كل توسلاتي لوالدتي بأن تتوقف قليلاً عن شراء الملابس الداخلية ، ولكنها كانت تُبرر ذلك بأن زوجي لن يرى سوى ملابسي الداخلية.

******

«وجهان لوجه واحد»

حينما رآني أبي أنزلق من رحمها، لم يكن يُفكر في شيء سوى ما الأفضل؟ أن يجعل أمي ترى الجانب الأيمن أولًا مني أم الجانب الأيسر.
بعد ولادتي مُباشرة حملني أبي بكلتا يديه وناولني إلى أُمي حتى تحملني من جانبي الأيمن وهي مُستلقية على الفراش تُعاني آلام الولادة، حينما لَمَحَت ملامح وجهي من جانبي الأيمن، ابتسمت، رأتني وسيمًا للغاية بتلك الشامة السوداء التي تُزين ذقني، رغم أن ملامحي كانت عادية، وحينما اكتملت رؤيتي أمامها وحينما رأت جانب وجهي الأيسر، صرخت بشدة وألقتني من يديها فزعة كجمرة من نار كادت تحرقها.
كان الجانب الأيمن طبيعيًا للغاية، أما الجانب الأيسر فقد كان مُشوهًا للغاية، جمجمة الرأس مُنتفخة للغاية ناحية الجبهة ثم ناحية العين اليسرى والأنف مُنزلقة وغائصة بعظامها نحو الداخل بشدة جعلت العين اليُسرى ضيقة جدًا وجعل جانب الأنف الأيسر صغير للغاية على عكس جانب الأنف الأيمن، ثم يعود الانتفاخ والتضخم ناحية الشفة من جانبها الأيسر وكذلك الذقن، حتى الشعر في جانب الرأس الأيسر كان أقل كثافة من الأيمن.
كان أبي يُفكر: هل يبدأ لأمي بالخبر المُفرح أم الخبر الحزين؟ الجانب الطبيعي أم الجانب المُشوه؟ هل يصدمها بالتشوه ثم يُخبرها أن هناك جانبًا لم يمسه السوء؟ أم يُريها الجانب الطبيعي أولًا ثم يُخبرها أن الفرحة

لم تكتمل؟ كذلك أنا اليوم أنظر إلى وجهي في المرآة وأتساءل: أي جانب من الجانبين أبدأ في مواجهة الآخر؟

في طفولتي كنت أرى جميع الطلاب يتزاحمون ويتكومون فوق بعضهم البعض على جانب الفصل الأيمن تاركين الجانب الأيسر فارغًا لأنني كنت أجلس بالمُنتصف، حتى لا يرى من يجلس على الجانب الأيسر جانب وجهي المُشوه، ألتصق بشباك الأوتوبيس الزجاجي بعد أن ألصق جانبي الأيسر به، أغلق ستارة الزجاج، وأستعرض جانبي الأيمن في سلام، أشعر في تلك اللحظة بأني مُخادع ولكن هذا هو الحل الأفضل.

كثيرًا ما أشعر بأن الله قد وضع الخير والشر داخلنا جميعًا، ولكن وضع الخير والشر على ملامح وجهي أنا فقط بالخارج، كلما لمحت انعكاس وجهي في أي شيء أشعر بالحيرة، إلى أي نصف أنتمي أنا، الجمال أم القُبح، القبول أم الرفض، الطبيعة أم ما وراء الطبيعة، اثنان في شخص واحد، حتى أمي حينما كانت تُلقمني حلمة ثديها حتى تُرضعني كانت تضعها في جانب شفتي الأيمن دون الآخر، وجميع الأهل والأقارب والأصدقاء القلائل حينما يُقبلوني، يقبلون الجانب الأيمن فقط دون الآخر، وحينما أتخيل زوجتي المُستقبلية أتخيلها في الليلة الأولى تعانق بشفتيها جانب شفتي الأيمن فقط دون الآخر، وتطلب مني أن أستلقي على جانبي الأيسر حتى أخفيه، تُسدد نظرها نحو الأسفل فأطمئنها بأن التشوه في مُنتصف وجهي فقط وليس جسدي كله.

وحينما كان يغضب مني أبي أو أمي كانت الصفعة تأتي هنا على جانب وجهي الأيسر، وحينما يلومني الأساتذة ويُعاقبوني يضربوني

بالعصا على يدي اليُسرى ويطلبون مني أن أرفع قدمي اليُسرى ويدي اليُسرى، وحينما يلومني أصدقائي القلائل يُسددون نظراتهم نحو عيني اليُسرى الغارقة بالداخل، وكأن جانبي الأيسر هو المسئول فقط عن كل المصائب.

كثيرًا ما راودتني فكرة الانتحار، ولكني كنت أشعر دائمًا أن الموت أقرب لي من أن أذهب إليه، أصعب نظرتين يُوجهان لأي شخص: نظرة الاشمئزاز ونظرة الشفقة، ولم توجه لي سواهما على مدى الحياة، إلى أن جلست بجانبي في أحد الأيام.

جديدة هي لم أرها من قبل، جميلة إلى درجة قد تؤذي نظرك، كالضوء الساطع حينما تُسلط عليه عينيك، رائحتها جعلت أعصاب جسدي تنتفض بشدة، طلبت مني أن أفتح الشباك بجانبي، أتعامل بمُنتهى الحذر حتى لا ترى الجانب الآخر، أطار الهواء شعرها حتى لسعت وجهي خُصلات شعرها كثيرًا، أنتظر صرخة الفتاة التي سوف تصُم الآذان حينما ترى الجانب المُشوه في أي وقت، ولكني في تلك اللحظة فقط قررت أن أسبقها أنا بالصدمة أن أصرخ بوجهها قبل أن تصرخ هي بوجهي، لن أنتظر أن تُلقيني كما ألقتني أمي من يديها.

وجهت وجهي كاملًا نحوها ثم أمسكت بذقنها وأدرت وجهها نحوي في رفق حتى لا تتهشم، وحينما رأت الجانب المُشوه لامسته بأناملها الرفيعة ذهابًا وإيابًا، تعلو شفتيها الوردية ابتسامة فضولية، وتعلو عينيها نظرة إعجاب، ولم يحدث شيء سوى ذلك، ولم أرها مرة أخرى، ولم أبحث عنها.

ومُنذ ذلك اليوم لم أعد ناقمًا على هذا الجانب، أصبحت أنظر إليه في المرآة ولا أرى سوى ملامحها وأناملها وابتسامتها ونظرتها، أشعر بالرضا التام – ولأول مرة – عن نفسي كاملة، لا النصف دون الآخر، ربما كانت هذه هي اللمسة السحرية التي تُغير مجرى الحياة، ربما كانت هذه الابتسامة علامة الإذن بالقبول، وكانت هذه النظرة لتمحو نظرتي الشفقة والاشمئزاز، ربما كانت هذه الفتاة من دمجت بين نصفيّ حتى أصبحت شخصًا واحدًا.

******

«العاهرة»

صرخ في وجهها مُستفسرًا: «لماذا عُدتي إلي مرة أخرى؟ هل تعلمين عدد المرات التي تركتيني فيها وحيدًا حتى تذهبين إلى غيري؟ أُقسم لكِ أنني حتى لم أعُد قادرًا على حصر عدد تلك المرات».

قالت في ثقة تامة: «ولماذا تتناولني بين أحضانك اشتياقًا في كل مرة أعود إليك فيها، وأنت على يقين بأني سأتركك يومًا ما حتى أذهب لأستنشق أحضان غيرك ثم أعود إليك مرة أُخرى؟».

قال في استسلام: «ضاع عُمري في اثنين، في انتظارِك وفي البحث عنكِ.. أيتُها العاهرة!».

قالت: «أنا لست عاهرة».

قال: «وما السعادة إلا عاهرة».

******

«الجزار»

كان يسير في أحد الأزقة في إحدى الحارات لا يعلم وجهته، تسارع إلى أُذنيه صوت أحدهم يصرخ باكيًا ويستنجد، كان هناك أمام محل الجزارة حلقة من الرجال الضخام تنهال ضربًا على شخص ما مُلقى على الأرض لم تظهر ملامحه.

ما زال الرجال يركلونه بأقدامهم في وجهه وجسده، ما زالوا ينهالون عليه بعصيانهم غير عابئين ببكائه الحاد، قرر التدخل دون تفكير.

اخترق الحلقة، وحينما وصل إلى الشاب المُلقى على الأرض والغارق وسط دمائه حتى يُنقذه، وجد أن هذا الشخص المُلقى على الأرض هو نفسه، جسده هو الذي كان يتحلق حوله الرجال مُنهالين عليه بالضرب.

في أقل من لحظة، شمر عن ذراعيه والتقط إحدى العصي في عُنف شديد من أحد الرجال، ثم انهال ضربًا مع الرجال على جسده، حالفًا ألا يتركه إلا بعد أن تُفارقه الروح، فهو يستحق الموت بلا أدنى شك.

******

«مقهى أم الخدود»

تجلس بضخامتها في جلبابها الأسود الذي لم يقدر على إخفاء الدهون والشحوم التي قد تدلت جانبي أسفل الكرسي الخشبي الذي تجلس عليه، تجلس على المقهى البلدي ودخان النارجيلة يتصاعد من فمها نحو السماء مُعلنًا أن الجنة لم تعد تحت أقدام الأمهات، تتابع بعينيها عمال المقهى وزبائنه وتُعطي أوامرها بإشارات من يديها تتبعها في بعض الأحيان بالسب واللعن لمن يتهاون من عمال مقهاها في عمله، تنظر نحو شرفة منزل بالدور الأرضي أمام المقهى الذي تجلس عليه بمنطقة شعبية قد سقطت من خارطة البلاد.

تتذكر تلك الطفلة الصغيرة بسنواتها الأربعة، كانت تسكن مع والدها في هذا المنزل بالدور الأرضي، توفيت والدتها بمُجرد ولادتها، فبمُجرد أن أخذت أول أنفاسها في الحياة أخرجت والدتها آخر أنفاسها، كان والدها يُشكل لها الحياة بكل معانيها، لا تتذكر أنها طلبت منه شيئًا خلال سنوات عمرها ولم يُلبيه لها على الفور، بالطبع سوى بعض الأمور الساذجة مثل أن تُشير نحو رسومات مُعلقة على الحائط لفراشات ملونة وتطلب منه أن يجعلها تتحرك وتتطير في سماء الغرفة.

طفلة مُنذ ولادتها لم يُرفض لها من قِبل والدها طلب، لا بُد أن تؤمن بأنه لا يستعصي عليه شيء في الوجود، فكُانت تبكي بُحرقة غير مُصدقة لعدم قدرة والدها على أن ينفخ الروح في الفراشات المرسومة على الحائط، وهو الذي لم يعجز يومًا عن فعل شيء.

كان والدها يعمل في النهار ويتركها لجارتها الأرملة حتى ترعاها مقابل بضعة جنيهات في نهاية كل شهر، وحينما يعود في الليل يضعها في شرفة المنزل بالدور الأرضي ثم يُحيطها بالألعاب والعرائس، وينزل إلى هذا المقهى البلدي أمام المنزل، يجتمع مع أصدقائه يُدخنون ويحتسون أكواب الشاي والقهوة، يُداعبونها بين كل حين والآخر، ويبعثون لها بالقُبلات ويلقون لها الحلوى حتى تمتلئ أرضية الشرفة، لم يكن أصدقاؤه فقط بل كل من يمر بتلك الحارة الضيقة كان يقف أمامها كقرد مُثير بداخل قفصه، وكان الجميع قد اتفق على أن يلقبوها بـ «أم الخدود»؛ حيث كانت خدودها مُنتفخة وحمراء تهتز لأتفه الأسباب، ومع مرور الأيام والسنين أصبح الجميع حينما يود الاجتماع في هذا المقهى، يقولون إن اجتماعهم سوف يكون أمام (أم الخدود) حتى أُلغي اسم المقهى نهائيًا واستبدل بمقهى (أم الخدود)، وأصبحت هي من تجذب الزبائن حتى امتلأ المقهى عن آخره.

وفي إحدى الليالي، غاب عن المقهى الرجل وطفلته (أم الخدود) لمدة ثلاث ليالٍ، فتطوع صاحب المقهى ودق باب منزله حتى أجابته الطفلة بالداخل، وأخبرته أن والدها مُستلقي على الفراش نائم منذ ثلاث ليالٍ رافضًا الاستيقاظ.

وبعد وفاة والدها، احتواها صاحب المقهى وجعلها تعيش وسط زوجته وأبنائه من نفس عمرها، وحين أتمت هذه الفتاة الاثني عشر عامًا تزوجها صاحب المقهى ودخل بزوجته أمام الطفلة، ثم دخل بالطفلة أمام زوجته، قتل بداخلها كل شيء وكل ذكرى جميلة لوالدها، فلم تعد تتذكر حتى ملامحه.

سحبت السيدة نفسًا عميقًا من النارجيلة الراقدة أمامها، نظرت إلى اليافطة المُعلقة فوقها (مقهى أم الخدود)، ثم صرخت في إحدى العمال مُشيرة نحو صورة ثابتة على الحائط لفراشات مُلونة.

– تعرف تخللي الفراش ده يطير ياد؟

******

«التنبؤ»

كان يجلس على إحدى المقاهي البلدية يتنفس دُخان النارجيلة، أخذ يحكي لأصدقائه عن مهنته التي تتطلب منه أن يُخرج أجيالًا ناجحة لهذا المُجتمع. أخذ يتحدث بفخر عن الجامعة التي يعمل بها أستاذًا في علم النفس، عن الطلاب الذي يُقابلونه بين كل حين والآخر في وظائف مرموقة.

أخذ نفسًا آخر ثم قام بالنداء على الصبي طالبًا المزيد من الفحم المُشتعل، وحينما جاء الصبي دقق النظر في الدكتور، وقال له الصبي:

– ألا تتذكرني؟ لقد كُنت أحد طُلابك، وكُنت دائمًا تتنبأ لي بمُستقبل باهر، وتقول لي إننا سوف نُصبح في إحدى الأيام زُملاء وجنبًا إلى جنب.

قال له الدكتور بمُنتهى الثقة:

– وها نحن، جنبًا إلى جنب.

******

«شاطئ النجاة»

الإسكندرية.. على الشاطئ، كُرسيان من البلاستيك الأبيض يحتضنان تمثالين من الشمع، أسفل تلك الشمسية الحمراء، التي تحجب عنهم أشعة شمس الشتاء، كل منهما يبحث عن الطريقة المُثلى للتمهيد للآخر نحو الانفصال.

تحولنا إلى تماثيل من الشمع، الحياة أصبحت مُملة، روتينية للغاية، لم يعُد يُثير كلانا شغف البحث في نَفس الآخر، لم يعد للمُستقبل كُرسي يجلس عليه إلى جانبنا، قتل كلانا الطموح بداخل الآخر، بعد أن نفخ فيه الروح، نقاشاتنا تحولت إلى مزيج من الهمجية والعصبية والألفاظ الخارجة، ولم يتبقَ إلا أن يترك كلانا كدمات بنفسجية على جسد الآخر، أصبحنا نستمع إلى النصائح على أنها اتهامات، وكأننا في حلبة مُلاكمة لا تنتهي جولاتُها، أصبح الكُره هو رفيقنا الأوحد.

ومَن هذه القادمة نحوهما!

إنها واحدة من موج البحر، أضخم موجة رأيتها في حياتي هي تلك التي سوف تبتلعنا على الفور قبل أن نلفظ أحاسيسنا، اتجهت الموجة نحو السحاب الأبيض حتى لامست شمس الشتاء ثم سقطت عليهما كالشلالات، وأخذتهم في طريق عودتها نحو البحر، أخذت كُرسيين من البلاستيك الأبيض، وشمسية حمراء، أما هما فأخذتهُما تمثالين من الشمع، لكنها أعادتهُما طفلين يحاولان الهروب من موجة مُفاجئة

في ماء مُثلج، طفلين يغرقان في نوبة ضحك هيستيرية وسط زُرقة بحر الإسكندرية، طفلين في مُنتهى البراءة لم يعرف الكُره لهما يومًا طريقًا، نسي كلاهُما مساوئ الآخر وسلبياته، تذكر كلاهما أسعد لحظات حياته مع الآخر في تلك اللحظة، وكأن البحر قد غسل خطاياهُما، حملها بين ذراعيه، وداعب أنفها بأنفه في رحلتهُما نحو الخروج إلى شاطئ النجاة.

******

«حينما تتمزق المياه»

في مُحافظة المنيا، ولد كل منهما في نفس اليوم ونفس التوقيت، ولكن من أم مُختلفة، وبمنزل مُختلف؛ ولذلك اعتبروهما أهل المنطقة توأمين، ومنذ ذلك اليوم تجدهما سويًا في كل تحركاتهما، مدرسة واحدة منذ الابتدائية مرورًا بالإعدادية والثانوية وحتى الجامعة، وفي كل هذه المراحل كان يُطلق عليهما «التوأمان».

كانت جلستهما المُفضلة إلى جانب الاستراحة بمنطقة المُنتزه، وبالتحديد منطقة يُطلق عليها «الجزيرة».. قطعة صغيرة ساحرة تطُل على النيل، يُدخنان بها دائمًا الحشيش ويشربان زجاجات البيرة، وكان اليوم فرح أحدهما، كانت ليلة كبيرة بالفعل، حضرها جميع أهل المحافظة تقريبًا، بدأت الليلة بتلاوة للقرآن الكريم للمُقرئ ذي الصوت العذب، ثم تبعتها الأغاني التي تهتز عليها مؤخرات الراقصات على لسان نفس المُقرئ!

يجلس المقرئ على المسرح في جلبابه الأبيض المُنتفخ بكرشه العظيم، والكوفية التي تعتلي رقبته، والنظارة ذات الإطار الأسود المُحاوطة لعينيه، يمسك الميكروفون بيده، وسيجارة الحشيش بيده الأخرى، ومن خلفه الفرقة الموسيقية، ومن فوقهم الأنوار الزرقاء تملأ الساحة، وجميع الحضور مُبتسم في بلاهة يدخنون الحشيش والنارجيلة، ويتجرعون زجاجات البيرة، ويتناولون الفاكهة بأنواعها، ويأكلون الترمس، كل ذلك بعد عجلين قد التهموهما مُنذ قليل.

وبعد انتهاء مراسم الفرح، وانصراف جميع الحضور تدريجيًا سوى

العريس وعروسه، وأقرب الأقربين، طلب العريس من أهل العروس أن يذهبوا بها إلى بيته حتى ينتهي من جلسته مع صديقه التوأم كما اعتادا دومًا قبل نهاية أي يوم عند الجزيرة.

أشعل التوأمان سيجارتي الحشيش، وفتحا زجاجتين من البيرة الخضراء، وافترشا الأرض أمام النيل؛ ليُودع العريس حياة العزوبية، ويكون أول قسم له بالطلاق بالثلاثة بعد زواجه أن لن يمر يوم وينتهي دون هذه الجلسة، ومرت عليهما الساعات وقبل الشروق بلحظات غابا عن الوعي، وزاد بينهما المُزاح والضحك ثم ركل الآخر بقدمه العريس في ظهره من الخلف، ولم يشعُر سوى بالعريس يسقط في النيل!

ولم يرَ شيئًا آخر بعد ذلك.. فراغ، حتى مياه النيل لم تهتز أو تُصدر صوتًا لسقوطه بها، اختفى بعد أن ابتلعه النيل ثم أغلق فمه إلى الأبد، لم يسمع سوى صوت المياه وهي تتمزق، صوت لم يسمعه من قبل، ولكنه صوت تمزق المياه، كان هذا هو إحساسه بالصوت، قد سمع من قبل صوت تمزيق الورقة وتمزيق اللحم كذلك، ولكن ذلك الصوت سمعه لأول مرة.

بحث عنه صديقه الذي ركله بمياه النيل في كل مكان، في البداية كان يسأل عنه حتى يُبعد عنه الشكوك وكأنه لا صلة له بالموضوع، ثم تطور الأمر إلى أن مس عقله شيء ما جعله يبحث عنه بالفعل، وهو في انتظار أن يجده في هذا المكان أو عند هذا الشخص.

كانت هذه هي نهاية علاقته مع أي مياه مصدرها نهر النيل، حينما أمسك بيده كوبًا زجاجيًا ووضعه أسفل صنبور المياه ليملؤه حتى يروي

عطشه، في البداية تأخر ظهور المياه وكأنها انقطعت، ثم انفجرت المياه بشدة من الصنبور لتملأ الكوب عن آخره، لم تمر سوى بضع ثوان في طريق كوب الماء إلى فمه حتى سمع صوت تمزيق المياه بشدة، ثم انفجر الكوب لتستقر شظاياه بوجهه.

حينما يمر بجانب نهر النيل في أي منطقة يسمع صوت تمزيق المياه بشدة تكاد تصُم أذنيه، فيضع إصبعيه داخل أذنيه بشدة ويركض إلى ما لا نهاية، حتى أنه لم يعد يستطيع التبول حينما أخرج عضوه وتبول بداخل القاعدة سمع صوت هذا التمزيق بشدة يصحبها صدى الصوت بالحمام، ثم انفجرت القاعدة لتُغرقه بما تحتويه، لم يعد قادرًا على شرب المياه تمامًا أو أي شيء يدخل في تكوينه المياه من مشروبات وغيرها، أصبح يبول على نفسه في سلام، ولا يجرؤ على الاستحمام حتى لا يُصيب طبلة أذنه صوت هذا التمزيق.

الموضوع لا يحتاج إلى أدنى تفسير، هو يعلم جيدًا أنها لعنة صديقه الذي أغرقه في مياه نهر النيل، ولكن لماذا هو بالذات من يستمع إلى صوت تمزيق مياه نهر النيل حتى يصُم آذانه؟ هو قتل شخصًا واحدًا فقط وعن غير عمد، هناك الكثير ممن قتلوا في مياه نهر النيل، بواخر كاملة تغرق، ومراكب تحمل مُهاجرين بطرق غير شرعية، وجرائم قتل تختفي كل ليلة بإلقاء الجُثث في مياه نهر النيل، لماذا هو بالتحديد؟ وبعيدًا عن نهر النيل، هناك كل ثانية جرائم ترتكب في البر والبحر والجو، هل كل قاتل يقتله ذنب القتيل بالطريقة التي قتل بها؟

قرر أن ينتهي من هذه المأساة بعد أن أصبح شكله كالمجاذيب يخشى

الناس أن يقربوه، ذهب نحو الجزيرة في مواجهة صوت التمزيق، واحتسى عشرات من زجاجات البيرة الخضراء، ودخن العديد من السجائر المحشوة بالحشيش، في تحدٍ لا ينتهي مع الصوت الذي أصابه بالهيستيريا، وقف عاريًا في مواجهة نهر النيل، ثم ألقى نفسه في استسلام ويأس، وجد جثة صديقه وتوأمه كما هي بالأسفل وفمه مفتوح عن آخره وكأنه يصرخ في استنجاد ويخرج من داخله صوت تمزيق المياه وبشدة ترتج لها المياه بالداخل، وبمجرد استقراره إلى جانب الجثة واستقباله للموت، اختفى الصوت نهائيًا وكأنه اطمئن إلى وجود توأمه في عالمه الآخر.

******

«أنت لا تُساوي مليمًا واحدًا»

كان مُلقى داخل زنزانته يلتف حوله المساجين يشاهدون تلك المُباراة النهائية عبر شاشة صغيرة للغاية، دقق النظر في هذا اللاعب الذي كان السبب في تواجده خلف قُضبان تلك الزنزانة، تذكر كلمات والده له بين كل حين والآخر، حينما كان يقول له: «أنت لا تُساوي مليمًا واحدًا».

في إحدى الليالي، غضب وترك المنزل ليُشاهد المباراة مع أصدقائه على القهوة، وبينما هو مُندمج في التشجيع استفزه المُعلق حينما قال على ذلك اللاعب إن سعره يُساوي بضع ملايين، وضع الخطة وقام بخطف هذا اللاعب وأخفاه أسفل الأرض، وفي اليوم التالي وجد الخبر يتصدر الجرائد، وجد أن النادي قد وضع مُكافأة تُساوي ضعف ثمن اللاعب لمن يستدل عليه.

وبمنتهى السذاجة أخبرهم عن مكانه، ثم تم القبض عليه وألقوه في تلك الزنزانة الحقيرة؛ ليُشاهد تلك المُباراة في تلك اللحظة التي سمع فيها المُعلق يقول أن سعر هذا اللاعب قد ارتفع إلى العشرة أضعاف بعد عملية خطفه، وفي تلك اللحظة تذكر صدى كلمات والده وهو يصرخ في وجهه: «أنت لا تُساوي مليمًا واحدًا».

******

«بداية النهاية»

يقف أمام ذلك المبنى الضخم المُكون من عشر طوابق، باختصار تتلخص مشاكله في هذا المبنى، عشرة مشاكل، كل مُشكلة حاصلة في طابق من هذا المبنى ذي العشر طوابق.

أخذ يصعد على السلالم.. طابق.. طابق؛ ينظر إلى مشاكله.. مُشكلة.. مُشكلة، حتى وصل إلى سطح المبنى، صعد على السور واقفًا، رفع يديه نحو السماء، وكأنه يحتضن الفراغ، ثم قفز مُنتحرًا.

وجد في الطابق العاشر أن مُشكلته به قد انتهت للتو، ثم التاسع.. الثامن.. وهكذا؛ كلما مر بطابق في طريقه نحو الموت وجد أن مُشكلته بداخله قد انتهت وتم حلها في نفس لحظة مُروره به ساقطًا من أعلى نحو جاذبية الأرض التي يدعو الله أن تتوقف تلك الجاذبية فيُصبح مُعلقًا في الهواء، حتى احتضن الأسفلت عظامه، لم تعُد هناك مشاكل في الحياة.

ولكن.. لم تعُد هناك حياة.

******

«المهر الغالي»

لا أعلم حتى هذه اللحظة ما السر وراء انجذابي لهذه النوعية من النساء، مُنذ صغري وحتى اليوم، لا تجذبني نساء تلك الطبقة التي أنتمي إليها من صاحبات الفساتين القصيرة والملابس الضيقة العارية والروائح الناعمة وقطع الألماس التي تحاوط رقباتهن ومعاصمهن وأصابعهن وآذانهن، لا تجذبني نظرتهن المُتكبرة وأنفهن الشامخة إلى أعلى، لا أُفضل تناول الكباب والكفتة والدجاج المشوي.

كم أعشق «النساء البلدي»، تلك العباءات السوداء التي تصف أجسادهن بمنحنياتها، حينما تنغرس العباءة مع أقل نسمة هواء بين أعلى أفخاذهن حتى ترسم مثلثًا تشتهيه كما تشاء، أبحث بعيني عن تلك الأرداف التي هي نتاج السمن البلدي الأصيل، أتتبع كل المنحنيات وأنا أستنشق هذه الروائح الرخيصة التي تنحصر بين الفل والياسمين بعد أن وضعت على أثر عرق أسبوع مضى، أساور الذهب الكثيرة التي تحاوط أيديهن، ومساحيق التجميل التي ينثرونها بعشوائية على وجوههن، أُفضل تناول الفول بالطحينة والزيت الحار وأقراص الطعمية الساخنة، الطواجن، والكشري.

رفضت بشدة كل النساء التي كانت تُعرض أمامي من قِبل والدتي لإتمام أكبر أفراح البلاد بحضور أهم رجال ونساء المُجتمع، لأنهن جميعهن من النوعية التي تُثير اشمئزازي، وحينما فاجأتهم إحدى الليالي بنيتي بالزواج بمن أرغب، أثرت اشمئزازهم وعزموا على مُقاطعتي.

قررت أن أستمر على ما أنا فيه دون تراجع، ركبت سيارتي الحمراء موديل السنة الحالية، وبمجرد وصولي إلى المنطقة، استنتجت أنه لا يُمكنني أن أدخل بالسيارة أكثر من ذلك في هذه الحواري التي بالكاد تتسع لثلاثة أشخاص يسيرون بمحاذاة بعضهم البعض، ترجلت من السيارة وأنا أرتدي البذلة السوداء والقميص الأبيض ورابطة العنق في لون دم الغزال، أحمل بذراعي علبة من أشهر محال الحلويات، أسير في الحارة بمُنتهى الحذر حتى لا أنغرس بقدمي في الطين الذي قد غطى الحارة، روائح كريهة تنبعث من هذا المقهى، رائحة المعسل الرخيص مصحوبة برائحة الخراف التي تنبعث من هذه الجزارة تصحبها رائحة فاكهة تطغي عليها رائحة الجوافة بالتحديد، ممزوجة برائحة «زفارة» السمك والجمبري من «فرشة» إلى جانب هذا العطار.

الجميع دون مبالغة يُسدد نظراته نحوي ولا يُسقطها ثانية واحدة، جميع أهل الحارة تركوا أشغالهم وما يفعلونه وتوقفوا فقط لمراقبتي، الآن فقط تذكرت نصائحها المُستميتة لي بألا أذهب إلى الحارة التي تسكن بها، أتذكر حديثي معها عن سر عدم زواجها إلى اليوم، تُخبرني بدلع رخيص ولكني أعشقه أن مهرها غالٍ جدًا مما يجعل (العرسان تطفش). بالله أي مهر هذا الذي سوف يطلبه هذا الخسيس والدها.

أسير في الحارة وأنا أبحث عن العلامات التي وصفتها لي حتى أصل إلى منزلها، نظرت إلى أعلى فوجدتها تقف في الشُرفة تستند على السور الذي وُضعت عليه سجادة ضخمة قد امتلأت بالثقوب، صرخت بفرحة فظهر إلى جانبها والدها ومن ثم والدتها ومن ثم أخواتها الخمسة،

ابتسمت لهم جميعًا بمنتهى الأناقة ونفخت صدري ولم تكتمل خطوة واحدة مني نحو الأمام حتى شعرت بإصبعًا ينغرس بقوة في مؤخرتي!
لم أشعر سوى بالحارة تهتز من ضحك السائرين بها، نظرت خلفي فوجدت طفلًا بملابسه الداخلية يركض مُسرعًا بعد فعلته، أسرعت خطواتي بعد أن نظرت نحوهم بالأعلى في خجل، فوجدتهم هم أيضًا يبتسمون للغاية في حذر فيما عدا هي، وقفت أمامي مجموعة من الأطفال، وشكلوا حولي دائرة، انتزعوا مني علبة الحلوى، وبينما أُنازع معهم لم أشعر سوى بعشرات الأصابع تنغرس في مؤخرتي، وكل إصبع تتلوه عبارة (خُد ده.. وخُد ده كمان)، ثم يظهرون فجأة أمامي حينما ألتف للدفاع عن مؤخرتي وأنا غير قادر على حمايتها؛ فأجد أحدهم يقوم بتهويشي وكأنه سوف يهم بصفعي على وجهي وحينما أتفاداه يعتصرني بشدة من صدري، ومنهم من يقذفني بالحصى في عضوي بالتحديد وكأن ما بينهما ثأر وهم على بعد ذراع مني ليس إلا.
ظللت أدور حول نفسي هكذا وسط ضحكات الجميع حتى دخلت حوش العمارة فارغ اليد ، أشعث الشعر,حذائي قد أصبح نصفة الأسفل في لون الخراء، أشعر ببرودة في مؤخرتي فاستنتجت أن البرودة نتيجة طبيعية بعد انتهاء السخونة التي هي بفعل احتكاك أصابعهم بمؤخرتي.
دخلت إلى المنزل فوجدتهم جالسين جميعهم على كنبة واحدة يكتمون ضحكاتهم، ولم يتبقَ لي من أثاث المنزل سوى كرسي واحد كي أجلس عليه، ألقيت عليهم السلام في حرج، فردّوه بينما وجدت والدها يُشير لزوجته نحوي، فوجدتها تُحاول أن تنزع عني البنطال بشكل تلقائي، وبعد مُناوشات عديدة أسفرت عن وقوفي عارياً من الأسفل، سوى من

الحذاء والشراب الأسود، ومن أعلى كما هو مُنتصف البذلة، وجدت والدتها تُمسك ببنطالي بين يديها تضحك بسخرية وهي تُخرج كفها بأكمله من مؤخرة البنطال من ثقب عريض به إثر الأصابع التي عبثت بمؤخرتي.

بينما تجلس والدتها على ماكينة الخياطة لترقيع بنطالي، حاولت أن أستعيد بعض ما ضاع من كرامتي بالمال، فأخذت أتحدث عن القصر الذي سوف أحضره لابنته وعن الفرح الذي سوف أُقيمه لها في أفخم فنادق البلاد، وعن شهر العسل الذي يُمكننا أن نزور به العالم، وعن الشبكة والمهر ومؤخر الصداق وخلافه وخلافه...

بإشارة أخرى لزوجته أعطتني البنطال كي أرتديه، قائلًا إن مهر ابنته وشبكتها ومؤخرها هو أن يخرج من هذه الحارة دون أن ينقطع بنطاله من مؤخرته مرة أخرى، وأنهى كلامه بعبارة (بنات الناس مش لعبة.. إحنا بنتنا مهرها غالي.. غالي قوي).

******

«التأليف»

في أحد لقاءاته التلفزيونية، بعد حصوله على جائزة نوبل في الأدب، سألته المُذيعة عن بداية اكتشافه لموهبة الكتابة، فأجابها بأنه مُنذ طفولته كان يكتب قصصًا في امتحاناته على مدار الأعوام وحتى تخرجه من الجامعة.

كان يكتب قصصًا أسفل أسئلة الامتحان – التي لا يعرف أجوبتها – استماعًا إلى نصيحة والدته بألا يترُك سؤالًا فارغًا حتى وإن لم يعرف إجابته.. «اكتب أي شيء.. قُم بالتأليف».

وحينما سألته عن سبب مقدرته على كتابة قصص طويلة وروايات مليئة بالأحداث المُتشابكة، أخبرها بأنه كان يُقال أن المُصحح يقيس الإجابات بالشِبر دون قراءتها.

******

«ناصع السواد»

كنت على الدوم مُتشائمًا، لا أرى سوى السواد، حتى في تلك اللحظات المليئة بالفرح والسعادة، كنت أبحث بداخلها عن مساوئها وعيوبها، وإن لم أجد؛ كان يُعكر صفو سعادتي تفكيري فيمن سوف يهجم علي في الليل لينتزع مني تلك السعادة، لم أُعطِ لنفسي فرصة كي أرى أي لون آخر سوى اللون الأسود.

وفي أحد الأيام، أقبل علي شعاع من النور الأبيض ليُحيطني من جميع الاتجاهات، كان البياض ناصع لدرجة لا تجعلني أرى سواه، كُنت فرحًا للغاية مُستبشرًا بمستقبل أفضل لا سواد فيه، ليس فيه سوى البياض، ولكن لم تكتمل فرحتي حينما أدركت أن هذا اللون الأبيض ما هو إلا الكفن المُحيط بي!

******

«أبو الرُكب»

كان في البداية يجر عربة يبيع عليها حصاد الموسم، مرة تجده يبيع التين الشوكي، ومرة أخرى يشوي الذرة، ومرة يبيع البطاطا الساخنة، ومرة تجد العربة مُحملة بالحرنكش، ثم يبيع عيدان قصب السكر، ولا مانع من بيع الترمس وتقديمه في أطباق مع الكمون والليمون.

وحينما أراد أن يتوسع قليلًا، قام بتأجير غرفة صغيرة جدًا في الحارة التي كان يقطن بها، وأدخل بها طاولة بلياردو بالكاد حتى أنها لا تسمح لأحد بأن يُمسك بالعصا ويلعب دون أن تعترضه الحوائط من خلفه، وعلى الرغم من ذلك قد جلبت له الكثير من الرزق، حيث كانت البلياردو هي حصاد الموسم في ذلك الوقت.

وبعد بضع سنوات قليلة، أحال الغرفة إلى شاشتين، وأصبح المكان للعبة «البلاي ستيشن»، حيث كانت هي الموضة في ذلك الوقت، وجلب له أيضًا الكثير والكثير من المال، وبعد ذلك أغلق المحل فترة زمنية طويلة ثم افتتح أول صالة جيم في تاريخ الحارة، وأطلق عليها شباب الحارة صالة كابتن «أبو الرُكب»، نفس الغرفة الضيقة ولا تحتوي سوى على بعض الأوزان القليلة وجهاز مُستعمل متهالك للركض، كان اليوم بجنيه واحد فقط لا غير، حيث يُمكنك أن تأتي في اليوم ألف مرة طالما لم تمر الأربع وعشرون ساعة من ساعة الدفع.

وفي أحد الأيام، دخل رجل هزيل ونحيف للغاية وكأنه هيكل عظمي

يرتدي «فانلة حمالات» بيضاء، وشورت أبيض، ووقف أمام أبو الركب وأخبره بأنه سوف يخوض معركة في الغد وأنه قد جاء اليوم من الصباح الباكر حتى يتمرن بما يكفي لأن يهزم خصمه.

استشف أبو الركب من كلامه خِفة عقله، فقرر استغلاله بأن يدفع له ثلاثين جنيهًا دُفعة واحدة ويقوم أبو الركب بتمرينه حتى يُصبح قادرًا على الانتصار.

وفي اليوم التالي، عاد إليه الرجل الهزيل وآثار الكدمات تملأ وجهه وجسده وخطوات قدميه فيها عرج، عاد ليُطالب أبو الركب بماله بعد أن خسر المعركة بجدارة.

سرح أبو الركب قليلًا، جميعنا مثل هذا الرجل النحيل الهزيل خفيف العقل، لا تحلو لنا المذاكرة سوى قبل الامتحان بيوم واحد وننتظر نتيجة رائعة غير تلك التي تخذلنا في كل مرة، ننتظر قبل ليلة الزواج بيوم واحد ونذهب إلى حمام الثلاثاء حتى نُزيل «الجلخ» الذي قد شكل طبقات فوق أجسادنا، ثم نأكل جميع الكائنات البحرية مُقتنعين قناعة تامة بأن هذا سوف يصنع منا رجالًا في ليلة الدُخلة!

تذكر طفولته حينما أخبرته أمه أنها سوف تصحبه إلى الملاهي في تمام الساعة الواحدة، وحينما أخبرها ما المقصود بالساعة الواحدة، شرحت له على ساعة الحائط حينما يأتي العقرب القصير على رقم واحد، ومن كثرة استعجاله انتظر الثواني ثم صرخ مُشيرًا نحو عقرب الثواني الطويل وهو يُشير نحو الواحدة، يتذكر ضحكات والدته حينما أخبرته بأنها قالت على العقرب القصير وليس العقرب الطويل.

حتى ونحن على فراش الموت نلفظ آخر أنفاسنا ندعو ونُصلي ونخشع ونبكي آملين أن تُغير تلك اللحظات مصيرنا، وأن تُحيلنا من طريق جهنم إلى طريق الجنة.. جميعنا خفيفو العقل.

تفكر أبو الركب قليلًا، ربما هذه هي الحالة الوحيدة التي لا يردنا الله فيها خائبين، مهما تأخرنا عن الميعاد وحتى إن كان قبله بلحظات قليلة، تجد الله يقبل توبتنا ويمحو ذنوبنا ويُحيلها إلى حسنات، الله هو الذي يعطيك النتيجة الفورية دون الحاجة إلى أن تتمرن قبلها بسنوات وشهور، الله هو الوحيد القادر على أن تذهب إليه الليلة وتخبره بأنك سوف تخوض معركة في الغد حتى وإن كانت مع الشيطان شخصيًا وتطلب منه النصر.. ولن يخذلك أبدًا.

أغلق المحل بضعة أيام، ثم افتتحه جامعًا يفترش أرضيته بالسجاد الأحمر القاتم، تنبعث منه رائحة البخور، ثم أطلق عليه أهل الحارة جامع الشيخ أبو الركب، حيث كان هذا هو حصاد الموسم في تلك الفترة تحديدًا.

******

«المألوف»

يا لها من مدينة! جميع أهلها يسيرون في أزقتها عرايا، رجال ونساء وأطفال وحيوانات، لا يستر أجسادهم شيء. وفجأة وجد أهل المدينة امرأة غريبة عنهم ترتدي ملابس وقورة تستر جميع أنحاء جسدها، وصفها نساء المدينة بـ«العاهرة»، وتحرش بها رجال المدينة العارية.

******

«العجوز»

وأنا في طريقي إلى الامتحان، كُنت مُتوترًا للغاية أشعر وكأن المعلومات تتساقط من ذهني أسفل خطواتي، لمحت امرأة عجوز للغاية، كأنها جاوزت المائة عام، انحناءة ظهرها جعلتها لا ترى سوى الأسفلت، كانت في مُحاولة مُستميتة لعبور هذا الطريق السريع الذي ينقسم إلى أربعة طرق سريعة ذهابًا وإيابًا.

رغم أن مُساعدتها سوف تستنزف بضع دقائق من امتحاني، إلا أنني شعرت أن ذلك هو الامتحان الحقيقي. تناولت كف يدها في رفق حتى لا تتهشم عظامها في كف يدي، ثم عَبَرت بها الطريق الأول والثاني ثم الثالث والرابع، كانت تقتلني الرغبة في أن أقوم بتوصيلها حتى باب منزلها، ولكن كان ذلك من المُستحيلات، دون أن أشعر طبعت العجوز قُبلة على أصابعي وذهبت.

حينما استقبلت ورقة الامتحان، وجدته مُكون من أربعة أسئلة، ودون أن أشعر وجدت أصابعي تتناول القلم وتركض بالإجابات دون وعي مني، وبين كل حين والآخر أشعر بالقبلة المطبوعة على أصابعي، حتى انتهيت من السؤال الأول والثاني ثم الثالث والرابع، وإلى اليوم وأنا أبحث عن العجائز قبل أي امتحان.

******

«انتحار جنين»

في نهاية الليل، الظلام ولا شيء سواه، ظهرت منه فتاة تسير بخطوات لا صوت لها، فقط صوت باطن قدميها حين تلامس البلاط البارد المليء بالمياه، ترتدي قميص نوم لونه أبيض ليُضيء الظلام المُحيط بها، يتطاير القميص بشدة بفعل رياح الشتاء التي لا تنقطع، تصحبها الأمطار الغزيرة التي تنصب فوق رأسها دون رحمة، أصبحت وكأن لا شيء يسترها بعد أن طار القميص عن مؤخرتها وبطنها المُنتفخة عن آخرها توشك على الانفجار، يزداد الهواء وقاحة ليُبرز عن حلمتي ثدييها المُحاطين بدوامتين سوداويتين، تنهمر من عينيها الدموع لتمتزج بالأمطار فلا تميزهما من بعض، شعرها الأسود يتطاير في اتجاه الرياح بشدة ليُخفي ملامح وجهها.

تُكمل خطواتها الخافتة التي رغم اهتزازها تبدو جريئة للغاية، تحيط بها أسوار سطح البناية التي تسير بها من كل اتجاه، بناية طابقها الأول هو دار للأيتام الذي قضت به سنوات عمرها، وصلت حتى زاوية سور سطح البناية، ثم صعدت فوق السور بقدميها العارية دون أدنى مجهود سوى أنها استندت أقل من ثانية بكف يدها على السور وهي صاعدة، وقفت على السور بعد أن غرست قدميها فوقه، تشعر بالارتفاع من هنا، عشرون طابقًا على الأقل، الرياح تعصف بشدة في مواجهة جسدها وكأنها تود أن تقذفها للخلف وتمنعها من الانتحار ولكنها ما زالت صامدة، بطنها المُنتفخة بالجنين كثيرًا ما تُشعرها بخلل في التوازن سرعان ما تقضي

عليه، تبكي مع السماء في صمت.

نظرت أسفل البناية، فتذكرت ما حكوه لها عنها، حينما وجدوها قطعة لحم حمراء في مثل هذا الجو الذي يُحيط بها الآن، وجدوها أمام دار الأيتام داخل كرتونة ورقية مُغلقة، ولم ينتبه لها أحد إلا بعد سماعهم لصوت ضحكات طفولية، فبحثوا داخل الصندوق ليجدوها تضحك بصوت مُرتفع، فأخذوها إلى الداخل حتى أصبحت اليوم شابة تقف على سور سطح نفس البناية ولكن دون ضحكات، فقط قررت اليوم أن تُنهي حياة الجنين الذي يرقد داخلها بدلًا من أن تتركه بداخل كرتونة أمام دار للأيتام.

لم تقدر على مواصلة الوقوف بفعل الرياح الشديدة، أخافتها كثيرًا أصوات الرعد والبرق، جلست على السور وأسقطت قدميها بالخارج، فتحت قدميها وصرخت صرخة اهتزت لها السماء، تلون وجهها بلون الدم وأخذت تتصبب عرقًا ليمتزج بدموعها ودموع السماء، يضرب الطلق في رحمها الذي ينقبض بشدة حتى يطرد الجنين إلى الخارج، وكلما تشعر بقدومه، تزيد من صراخها وتوسع بين قدميها حتى تقذفه من أعلى البناية بمُجرد خروجه.

تتذكر قصة الحب التي عاشتها وجعلتها تهرب معه من الدار، تزوجته زواجًا سريًا حتى لا تُغضبه بعد أن علمت أن في زواجهما غضبًا لأهله، فتنازلت.. تنازلت عن الدار وعن أخواتها به، وعن كل شيء في سبيل سعادته.

لم تشعر بالشارع وهو يمتلئ شيئًا فشيئًا بالأشخاص على صوت

صريخها، لم تشعر ببداية الشروق وانقضاء الليل، فقط تتساءل أين كان كل هؤلاء حينما صرخت من قبل؟

كانت ترقد بداخله حينما كُسر زجاج النافذة واقتحمه اثنان، أحدهما ضرب زوجها على رأسه مرات مُتتالية حتى أفقدته الوعي، والآخر كان ينزع عنها ملابسها ثم اغتصبها هو ثم شريكه مرات متتالية بالتناوب دون توقف حتى غابت عن الوعي، كانت تصرخ بشدة أيضًا، وربما أكثر من تلك اللحظة، فآلام الولادة أقل بكثير جدًا من آلام الاغتصاب.

واصلت صريخها مع ظهور أول رأس الجنين، ثم رقبته.. كتفيه.. صدره وظهره، بطنه.. قدميه، سقط إلى أسفل نحو الشارع، ثم فجأة تعلق من سرته بحبله السري الذي ما زال داخل رحم الأم، وأصبح مُعلقًا بين الحياة والموت.

******

«مدرستي النظيفة»

كنت في الثامنة من عمري، أذهب إلى المدرسة وأنا في قمة غضبي وكُرهي، على الرغم من حُبي القاتل للعِلم، أذهب إلى تلك المدرسة الفقيرة أتخيل أني قد قفزت داخل سلة مُهملات ضخمة، فصل مُكتظ بالطلاب الذين يجلسون فوق بعضهم البعض، ويقفون مُتلاصقون وكأنهم في المِترو، في وقت الفُسحة أُخرج رغيف العيش حتى يختطفه مني الجميع قبل أن تصل إلى فمي منه قضمة واحدة، وفي حِصة الألعاب لم أجد لنفسي مكانًا وسط أي من الفريقين.

ومن هنا.. لم أعُد أذهب إلى المدرسة إلا يومين فقط، هُما يوما الجُمعة والسبت، يوما الإجازة، أستيقظ في الصباح الباكر حتى أرتدي زي المدرسة، أحمل حقيبتي المليئة بالكُتب وسط ذهول أُسرتي، أتسلل نحو المدرسة وأقفز إلى داخلها كاللصوص، أجدها فارغة، نظيفة، أتجول داخل فصولها كما أشاء، أستذكر دروسي، وأنجز واجباتي، وألتهم وجبتي دون أعداء جِياع، أستولي على الملعب بأكمله، وأُسدد في كلا الشبكتين ما أشاء من أهداف.

******

«مُنحدر الطريق»

رأيته وأنا أُدخن سيجارة مُنتصف الليل من شباك غُرفتي، رُبما هو اللون البُرتقالي المُضيء هو ما لفت انتباه عيني إليه، رجل يرتدي سُترة بُرتقالية اللون وبنطال بُرتقالي وقُبعة تحمل نفس اللون الفاقع، يحكم بقبضة يده على مِكنسة من القش، وفي اليد الأخرى صندوق بلاستيكي أسود يجره خلفه بعجلتيه في تلكؤٍ شديد.

الشارع الذي أسكن به من ضخامته وحيويته، يحتوي على سوق ضخمة ومطاعم شعبية ومقاهي بلدية ومحلات عصير وأكشاك وغيرها، كأنني أسكن وسط البلد، وفي مثل ذلك الوقت من الليل لا يبقى من الباعة والجائلين والزبائن والسائلين سوى مخلفاتهم، حيث يُصبح الشارع عُبارة عن سلة مهملات ضخمة ييأس عمال النظافة من بذل أدنى مجهود في إزالتها لعلمهم بتراكمها مرة أخرى بعد ساعات ضئيلة في الصباح الباكر.

ظهرت على الرصيف المُقابل للشارع، على الناحية الأخرى، سيدة ترتدي نفس ملابسه البُرتقالية والقُبعة وتحكم بقبضة يدها أيضًا على مكنسة من القش، وفي اليد الأخرى صندوق بلاستيكي أسود تجره خلفها بعجلتيه في تلكؤ شديد، لم يُميزها عنه سوى انتفاخ صدرها ومؤخرتها.

وبمُجرد أن رأى كلاهما الآخر حتى دب النشاط داخلهما كل على ناصيته، تركض المكنسة على الأسفلت لتزيح أي وسخ من عليه، أصبح

الأسفلت يلمع من تحت أكوام الأوساخ التي أزاحوها عنه، وكلما تلاقا في مُنتصف الطريق اختلسا قُبلة لبضع ثوانٍ ثم يفترقا كل على ناصيته ليزيح بعض أكوام الأوساخ ثم يتلاقا في مُنتصفه مرة أخرى لاختلاس قُبلة أخرى، وظل الوضع كذلك حتى أخفاهما مُنحدر الطريق الذي لم أره نظيفًا هكذا من قبل.

دب النهار مرة أخرى في هذا الشارع، وافترش البائعون بضائعهم، وافترش أصحاب المقاهي طاولاتهم وكراسيهم، ورش أصحاب محلات العصير المياه أمام أبوابهم، وعادت القمامة أكوامًا لتعلن عن نهاية اليوم.

تكرر مشهد الأمس مع زيادة نشاطهما وزيادة مدة قبلاتهما، وظهر في المشهد من خلفهما شرطي يحكم بقبضتيه على أعناقهم بشدة، وأخذ يرج جسديهما حتى طرحهما أرضًا إلى جانب صناديقهما السوداء بعد أن انسكب منها كل ما قد أزاحوه من قمامة، وأخذهما الشرطي بعيدًا حتى أخفاهما مُنحدر الطريق الذي لم أره نظيفًا بعد ذلك.

******

«المراجعة النهائية»

في إحدى قاعات التدريس تحت الأرض، حيث تهبط إليها بالعديد من السلالم الحديدية الصدئة، تجر السيدة الضخمة الملتحفة بعبائتها السوداء طفلة لم تتم بعد الثماني سنوات من عمرها، (هدى) نحيلة للغاية، وجهها أصفر شاحب وعيناها زائغتان، تسير في ملل مصحوب باليأس، وكأنها تُقاد إلى غرفة الإعدام، دخلت السيدة – تقبض على يد (هدى) ابنتها – على مجموعة من طلاب كلية الطب ويتوسطهم دكتور كبير في السن.

طلبت الأم من ابنتها أن تصعد على فراش الكشف ذو الجلد الأسود المهترئ، وسط مناوشات ورفض من الابنة أنهتها الأم بصفعة من كفها الضخمة على وجه ابنتها أرقدتها على الفراش، وسط تهدئة الطلبة للأم واستدراج الطفلة بكلمات المواساة وقوالب الحلوى التي لم تعد تشعر بمذاقها، فقط تعلم أن هذا المشهد يتكرر بكل تفاصيله منذ بدايته وحتى النهاية المنتظرة، كل طالب يغرس يده في جيبه ليُخرج الفئة المُتفق عليها من النقود ثم يقوموا بتجميعها وإعطائها للأم كي تقوم بعدها في نهم ثم تحشرها بين ثدييها أسفل العباءة، ثم تجر ابنتها نحو طلاب آخرين وزبائن تدفع.

تتذكر (هدى) كلام والدتها وهي تروي لها حالتها وكأنها كبيرة الأطباء وبمنتهى الاحتراف، كلام تتخلله مصطلحات باللغة الإنجليزية أصبحت بعد ذلك أليفة على أذنها، تتذكر كلامها بأنها قد عانت مشاكل صحية

شديدة وهي لم تبلغ من العمر شهرين، وعندما أتمت السنة أصبح لون وجهها يميل إلى اللون الأزرق مع انخفاضات في درجة حرارتها، وحينما شخصت حالتها وجدت أنها تعاني من مرض يُدعى «فالوت»، مرض قلبي خلقي، وهو من أهم أسباب متلازمة الطفل المزرق، يحدث فيه تحويل دموي من اليمين إلى اليسار في القلب، ما يؤدي إلى ضخ دم ينقصه الأكسجين.

اعتادت (هدى) أن يكشف الطلاب ملابسها حتى يُصبح جسدها عاريًا والجميع يُشخص في حالتها وكأنه ينتهك جسدها، اغتصاب جماعي. تعلم (هدى) جيدًا أن حالتها يمكن أن تُشفى أو على الأقل تتحسن أو ألا تتدهور حتى تموت، وحينما تموت لن يحزن عليها أحد سوى أمها لأن باب رزقهما سوف يغلق، لن تجد والدتها بعد موتها مريضًا تتاجر بمرضه لطلاب كلية الطب حتى يستذكروا دروسهم عليه، أو لمساعدتهم في المراجعة النهائية قبل الامتحان أو ليقوموا بتأدية امتحان العملي عليه ليأخذوا درجاتهم النهائية، ويقبض المريض مقابل الكشف وإدلائه بالتشخيص الصحيح لمرضه.

تهبط (هدى) من فوق الفراش المهترئ، مُجهدة هي للغاية يكسوها العرق، تُغلق أزرة البلوزة الحمراء وكأنها ملوثة بدم غشاء بكارتها، لا تطيق رائحة جسدها الذي هو خليط من الأيادي التي امتدت إليه، أمها بالنسبة إليها هي قوادة كبيرة تبيع جسد ابنتها حتى تقبض الثمن، كانت الأم هي العاهرة من ذي قبل، وبعد أن امتلئ جسدها وأصبح مليء بالترهلات ولا يطيق أن يُضاجعها أحد، أنجبت للحياة عاهرة أخرى لتعيد ماضيها وتقبض عنها الثمن.

كانت والدتها من قبلها هي التي تسترزق بمرضها بنفس الطريقة، وبعد أن ملها الطلاب وأساتذتهم وأصبحت وجهًا يتكرر في كل امتحان، لم تُصبح مادة دسمة للطلاب، فقررت الزواج فقط حتى تُنجب طفلة بها عيب خلقي يُمكنها الاسترزاق من مرضها، وحتى تضمن أن يرزقها الله بطفلة مريضة أصبحت وهي في شهور الحمل تتناول كل الأدوية التي تُحذر من حدوث تشوهات للجنين.

******

«البطون المُنتفخة»

كان يجلس في عيادته الضخمة بجسده الضخم، بعد أن انصرفت عنه جميع الممرضات وأصبحت العيادة خالية من النساء المُنتفخات بتفاوت الأشهر التسعة وصوت بكاء الأطفال المُمتزج بضحكاتهم، ورائحة دخان السجائر المُنبعث من أزواجهن المُنتظرين خارج باب العيادة.

اعتاد أن يجلس في عيادته حتى مُنتصف الليل، وربما تطول المدة حتى شروق الشمس، فقط في الأيام التي يتشوق فيها لذرف دموعه دون أن يشعر به أحد، على الرغم من اقترابه لعام رقم سبعين من عمره إلا أنه ما زال يختلي بنفسه كي يبكي بحرقة بعد أن يُخبر إحداهن أن الجنين بداخلها قد مات أو أُصيب بمكروه أو أنه قد رأى في شاشة السونار الكئيبة عيبًا خُلقيًا لا بد وأن يُصارحها به، يظن الجميع بأنه أصبح بعد مرور كل تلك السنوات يُطلق مثل هذه الأخبار بمنتهى العملية دون أن يُفسح مجالاً لمشاعره.

– يجب أن تذهبي حالًا إلى المستشفى التي سوف تقومين بالولادة فيها.

– ولكني ما زلت في الشهر الرابع.

– أعلم.. ولكن الجنين ميت بالداخل منذ عدة أيام.

أمسك بعلبة السجائر الموضوعة أمامه وأشعل واحدة ونفث دخانها الذي لم يجد منفذًا للخروج، فقط صدى صوت الرعد والبرق بالخارج وقطرات الأمطار المُتساقطة على زجاج النافذة، تُزيد تلك الأصوات من شعوره بالكآبة والحزن، لا يعلم أحد الأدعية والتوسلات التي يُطلقها

قبل كل نظرة له في شاشة السونار بأن يكون الجنين بخير حتى لا يُذبح هو بمشاهد قتلى لم تأتِ للحياة بعد، يخشى أن يقتل ابتسامة على شفتي الأم الراقدة أمامه تتشوق لرؤيته وسماع نبضات قلبه.

سدد نظرته نحو النافذة فلم يرَ سوى انتفاخ الستار وسائلًا أصفر لزجًا يتساقط أسفلها، ظهرت من خلفها سيدة عارية تمامًا، جسدها يتلون باللون الأحمر القاتم المائل إلى السواد، جسدها بالكامل يغزوه الشعر النابت كشظايا الزجاج، في وجهها وحتى أصابع قدميها، شعرها يتساقط قليلاً أمام عينيها بشكل يُبرز الصلع الذي برأسها والقرنين المغروسين فوقه، ذيل يخرج من مؤخرتها يترنح يمينًا ويسارًا، ثدياها ضخمان للغاية حتى كادا أن يلاصقا ركبتيها، حلمتاها تشكل دائرة سوداء ضخمة وكأنها دوامة تغرق بها، ويملؤهما أيضًا الشعر النابت، بطنها مُنتفخة عن آخرها توحي بوجود جنين مكتمل، ويتساقط السائل الأصفر اللزج المخلوط بالدم من رحمها ليسيل على فخذيها ويُغرق بلاط العيادة، كانت السيدة تبكي وأخذ بكاؤها يشتد حتى أصبح نحيبًا مزعجًا للغاية يُمزق في قلب الطبيب.

أخذت تستغيث به أن يقوم هو بتوليدها، وينقذ حياتها وحياة مولودها، كان جسده ينتفض بشدة ورائحة العرق والبول تفوح من جسده، دارت به الدنيا من حوله وأخذ يتحرك بشكل لا إرادي، مسلوب الإرادة، هناك من يقوم بتحريكه وتجهيز أدواته، وبعد بضع دقائق كان يُمسك بين كفيه مولودًا ذكرًا بنفس مواصفات والدته، اللون الأحمر القاتم المائل إلى السواد، القرنين الصغيرين للغاية، الشعر النابت في جسده بأكمله،

عيناه بيضاوان بأكملهما، جسده ملطخ بسائل أصفر لزج، قطع حبله السري، ثم ناوله لوالدته التي تلقفته في لهفة وأسلمته ثديها ليدر له من لبنها.

******

«امتحانات نهاية العام»

في فترة امتحانات نهاية العام كان أتوبيس الجامعة في رحلته الصباحية لالتقاط الطلاب من محطات انتظارهم حتى ينقلهم إلى الجامعة، وكانت هناك فتاة قد تأخرت عن ميعاد انتظارها، أخذ يصرخ الطلاب في السائق حتى ينصرف ويتركها دون أن ينتظرها، لأن هناك امتحان في الفترة الصباحية، ووسط صرخاتهم ظهرت الفتاة وهي تركض ناحية الأتوبيس حتى تلحق به، جاءت سيارة مُسرعة وصدمت الفتاة حتى قذفتها نحو الفضاء لتسقط صريعة دون نبضات قلبها، صرخ الطلاب في السائق مرة أُخرى، حتى ينطلق قبل فوات ميعاد امتحان نهاية العام.

******

«دور البطولة»

كان في قمة غضبه، دخل الحارة الشعبية التي يسكُن بها، تَوَجه نحو الحائط الإسمنتي حتى أصبح وجهه مُلاصقًا له تمامًا، لم يرَ أمامه سوى ظله، حقق بالفعل الجُمله الشهيرة: « يتخانق مع ظِله »، أخذ ينعته بأقبح الصفات والألفاظ النابية، اتهم ظِله بأنه هو السبب الأوحد لفشله في جميع أمور حياته. هو السبب في أنه لم يُصبح مشهورًا حتى الآن كما أراد طيلة حياته، علق فشله على شماعة ظِله، وأفشى غليله فيه، سدد ضربة عنيفة بقبضة يده نحو الحائط في وجه ظِله، ثم أخذ يركُل ظله بقدميه في شكل هيستيري، وحينما أعياه ضرب الظِل، أسقط بنطاله على الأرض وأخذ يتبول على ظِله حتى ارتسمت على وجهه علامات الراحة والسعادة لإهانة هذا الظل رفيق الفشل.

وفي طريقه نحو الانصراف، وجد ظله ثابتًا كما هو على الحائط، لم يتحرك الظِل مع حركة صاحبه، ولم يتبعه كما كان في جميع تحرُكاته، اهتزت خطواته قليلًا ولكنه واصل الانصراف بدون ظِله، وفي ليلة من الليالي أمسك الجريدة بين يديه يتصفحها حتى يحقِد على مشاهيرها كما اعتاد دومًا وجد صورة ظِله بطول حجم صفحة الجريدة وعرضها، تحت عنوان: « الظِل الذي تمرد على صاحبه ».

******

«بعض ذكريات الطفولة»

أتذكر وأنا طفل في المدرسة الهالة التي كانت تحيط بهاتف بيتنا ورقمه المُقدس الذي كان من المحرم علينا أن نتداوله بين الأصدقاء:

– الأصدقاء في المدرسة فقط أو في الشارع.

أما رقم هاتف البيت لا يمكن إعطاؤه لأحد، وإن حدث ذلك فسوف يكون العقاب في انتظارنا، تربيت على ذلك ونفذت القوانين دون مبررات منطقية لتنفيذها، ومن حاول سرقة الرقم من إحدى الاستمارات ويكتبه في كشكوله، كنت أقوم بضربه ضربًا مبرحًا ينتهي بتمزيق الكشكول بأكمله حتى أطمئن أنه لم ينل الرقم، حتى أنه في أحد الأيام كان أحد زملائي يريد رقم الهاتف فرفضت بشدة كالعادة وكأنه ضمن محرمات الدين، ثم وقعت عينيه على أحد الاستمارات التي كانت تطلبها منا المدرسة وكان من ضمن بياناتها رقم هاتف البيت، ثم رمقني صديقي بابتسامة نصر لم أرَ مثلها في حياتي، وقال مُشيرًا إلى جمجمته:

– لقد حفظت رقم هاتف بيتك، وسوف أقوم بالاتصال بك.

في تلك اللحظة لم يكن يشغل بالي سوى تخيلي لمظهر والدتي وهي تقوم بالرد على هاتف البيت لتجده أحد أصدقائي وتعرضي للعقاب الذي تتفنن فيه بشتى أنواع الضرب والحرمان، لم أشعر بنفسي وأنا أصفعه على رأسه ثم ناولته عدة لكمات متتالية في جمجمته أيضًا، كان كل ضربي متمركزًا حول المنطقة التي أشار إليها بإصبعه وأبلغني أن رقم

هاتفي يرقد بداخلها، حتى أني تناولت أحد الكراسي بالفصل ورفعته عاليًا ثم ألقيته على رأسه، سقط صديقي على أرض الفصل وسط دمائه وكنت ما زلت أريد مواصلة الضرب وسط محاولة الأصدقاء والمدرسين في إبعادي عنه، وأنا أردد جملة واحدة فقط في شكل هيستيري:

– لا بد وأن يفقد الذاكرة.. رقم هاتفي بداخلها.

أتذكر أيضًا عقاب أحد المدرسين لنا والذي كان يُسميه بـ «الحقنة»، هو يقص جميع أظافر يده سوى ظفري إصبعيه الصغيرين يمينًا ويسارًا يُطلقهما طويلًا محافظًا على نظافتهما فقط ليعاقبنا، فـ«الحقنة» هي أن يقبض على كف يدك كأنه يُصافحك ثم يغرس ظفر إصبعه الصغير في جلدك حتى يصل إلى لحمك، وكان هذا هو أشد عقاب مؤلم قد عاصرناه، وكنت طفلًا ملتزمًا للغاية أحفظ دروسي وأقوم بواجباتي خاصة لهذا المدرس حتى لا أتعرض للحقنة ولم أتعرض إليها طوال حياتي بالفعل، وفي إحدى المرات كانت زميلتي التي ترقد بجانبي في الفصل لم تقم بعمل الواجب وكنت أعشقها للغاية، فأعطيتها كشكولي ورفعت يدي مستعدًا للعقاب، فصافحني المدرس وبمجرد أن لامس ظفره جلدي.. صرخت، فوجدت زميلتي تصرخ من مكانها وتقول للمدرس أنني كاذب وهي التي لم تقم بعمل الواجب وليس أنا، حتى تعتقني من العقاب، ففرحت للغاية لأنها تبادلني نفس الشعور، وحزنت لأنها سوف تتعرض للعقاب بدلًا مني، فناداها المدرس وهو ما زال يقبض بحقنته على قبضتي اليمنى، وناولها هي قبضة يده اليُسرى، وغرس بعزم ما فيه حقنتين في آن واحد، ليملأ صراخنا الذي امتزج المدرسة بأكملها.

أتذكر صديقي الذي كنت أذهب إليه في نهاية كل أسبوع حتى نشاهد التلفاز سويًا أو نلعب (بلاي ستيشن) بينما يكون أهله في زيارة لأهلهم في المنيا، والتي لم يكن يطيق هو الذهاب إليها، وكأن أهله يتفهمون ذلك حيث لا أحد من أفراد عائلته في سنه أو حتى يُقاربه، كان صديقي ممتلئ للغاية وقصير، شعره ناعم وخدوده حمراء، وحيد لا إخوة له، ملامحه لا توحي إليك بأنه لا يرتكب أي ذنب، وكان صديقي هذا له عادة لا أفهمها، في وسط مشاهدتنا للتلفاز أو اللعب، يتركني ويختفي بالداخل ما يُقارب النصف ساعة ثم يعود منتشيًا للغاية متحمساً لمواصلة السهرة بينما أكون أنا في قمة غضبي، وفي إحدى مرات غيابه أطال المدة فغضبت وقررت على غير عادة ما تربيت أن أخرج من الغرفة وأبحث عنه في المنزل، وشجعني على ذلك علمي بأن المنزل خالي لا يوجد به أحد، وأنا أتنقل بين طرقات المنزل باحثًا عنه سمعت صوت مواء قطة، ولكنه مواء لم أسمعه من قط وكأنه مواء عاهرة على الفراش، مشيت وراء هذا الصوت فوجدت الباب مغلقًا فتحته بشدة مرة واحدة، فوجدت صديقي جالسًا على الفراش، نصفه الأسفل عاري بعد أن أسقط بنطاله على الأرض، كان ممسكًا بقطة لونها رمادي ويبدو أنها من قطط الشارع، كانت القطة عارية هي الأخرى، حيث كان قضيبه في مؤخرتها، وهو في قمة نشوته، وبمجرد دخولي فزع كلاهما، وهربت القطة من أسفل قدمي، وحين تابعتها كانت فتحاتها مُتسعة.

أتذكر حينما طلبت مني والدتي أن أبتاع من الكشك مسحوق غسيل، وحينما نزلت وجدت أمام الكشك على الأرض شوكولاتة صغيرة، فحملتها وأعطيتها للبائع وأخبرته أنها ربما قد سقطت من الكشك،

فابتسم لي وأعطاني إياها، وقال: «إنت ولد أمين»، عُدت إلى والدتي بالمسحوق وفي اليد الأخرى رمقت الشوكولاتة، فسألتني عن مصدرها فأخبرتها، فلم تُصدق وصفعتني دون تفاهم على وجهي واتهمتني بالسرقة وبأنني «حرامي» وسوف أُشوى في نار جهنم، فعارضتها وسط بكائي وأقسمت أنه هو الذي أعطاني إياها، فواصلت ضربها ومزقت ملابسي وتوالت اللكمات على وجهي حتى انسال من أنفي الدم، وهي تلطم خدودها طالبة مني الاعتراف بالسرقة حتى لا أتمادى فيها.

– اليوم شوكولاتة صغيرة، وغدًا تسرق بنكًا يا ابن الكلب.

علقتني والدتي من قفاي كما يُعلق الحرامية بالفعل وكأنها توصلت للحل، ذهبت بي إلى البائع، وسألته وأنا أنزف بين يديها دموعي ودمائي، فأخبرها أنه هو الذي أعطاني إياها بالفعل وأنني ولد أمين ولم أسرق شيئًا وأني سلمت الأمانة فكافأني بها.

في هذا الوقت، كانت نساء الحارة قد بدأن في الاجتماع والالتفاف حول والدتي ومظهري المثير للإثارة، كان الخجل والندم يملؤ وجه والدتي ولا تدري ماذا تفعل، فذرفت دمعة.. تركتني، ثم قفزت على البائع وجلبته من قميصه، صارخة:

– الراجل الشاذ بيغري الواد بحتة شوكلاتاية، والدور جاي على ولادكم يا نسوان.

نظر الجميع إلى مظهري وظنوا أن السبب فيه هو تحرش البائع الشاذ بي، فالتف حوله الجميع وأوسعوه ضربًا، لم أكن أعلم معنى كلمة شاذ التي تجعلهم يفعلوا به ذلك، فقط كنت أريد أن أنقذه وأن تنال أمي العقاب، فصرخت بهم:

– عم هاني مش شاذ، أمي هي اللي شاذ، أمي هي اللي شاذ، عم هاني مش شاذ.

أتذكر حينما كنت أذهب في أحد الدروس الخصوصية إلى منزل مُدرسة كانت من أحلى المدرسات، ولذلك كنت أتشوق للذهاب إلى منزلها، على الرغم من رسوبي الدائم في مادتها، ليس العيب في شرحها ولكن فيّ أنا حين كنت أقوم بالتركيز في أي قطعة من جسدها دون الشرح، وكم كنت أعشق أن أستأذنها كل مرة في الدخول إلى الحمام، ثم أعبث في سلة الغسيل المتسخ بالداخل حتى أتصيد قطع ملابسها الداخلية وأشتم رائحتها التي تحمل رائحة جسدها، وفي إحدى المرات زاد بي الطمع، فخبأت حمالة صدرها الضخمة داخل بنطالي، وحينما خرجت إليها لمحت بعينيها التضخم الواضح فظنت أني سرقت شيئًا، ولكنها لم تبدِ اعتراضًا وماطلت في مدة الدرس حتى عاد زوجها من العمل، وبمجرد دخوله.. صرخت، نزع زوجها بنطالي عني وأخرج حمالة الصدر وأخرج أشياء أخرى كثيرة صغيرة تخصها، ثم جعلني عاريًا تمامًا من الأسفل وفتح باب المنزل وطردني خارجًا وهو يستشيط غضبًا ولم يمنعه عن قتلي سوى سني الصغير، ركضت وأنا ألمحها بعيني كانت واقفة تحمل على شفتيها ابتسامة مُثيرة للغاية.

أتذكر حينما كان الجميع يستغل الهروب من الفصل بالذهاب إلى الحمام، فمنع المدرس تمامًا الذهاب إليه، ولأول مرة أطلب منه أنا أن أذهب إلى الحمام.. فرفض، توسلت إليه ورجوته بشدة فلم يستمع، وبالفعل كنت في طريقي لأن أتبول على نفسي، فنزعت عني بنطالي أسفل الطاولة وأخرجت عضوي وصوبته أسفل طاولة زميلي الذي يرقد

أمامي وتبولت في هدوء، وكأن شيئًا لم يكن، وحينما رأى المدرس البركة أسفله لم يتهمه، بل انحنى ناحية بركة البول وغرس إصبعيه فيها ثم قال له أنا أعلم بولك جيدًا، هذا ليس بولك ولا سُمكه وانسيابيته ولا لونه ولا رائحته، ولا درجة الحرارة المُنبعثة منه، هذا بول جديد، ثم نظر نحوي قائلًا: «هذا خطأي أظن أنك بالفعل كنت في حاجة للذهاب إلى الحمام».

أتذكر عمتي حينما كان يصطحبني أبي إليها لزيارتها في المستشفى الحكومي، لم أكن أعلم ما هو مرضها بالتحديد، هي فقط كانت ترقد على الفراش في غرفة المستشفى وسط العديد من المرضى، وكانت بمجرد رؤيتي تسعد للغاية وتنهض وكأن شيئًا لم يكن، ولا أعلم لماذا كانت لعبتي المفضلة معها أن أدخل برأسي من بين قدميها أسفل جلبابها وأختبئ بالداخل بينما أسمع صوت ضحكاتها تتعالى بالخارج، والغريب أن أبي لم ينهرني على فعلتي من كثرة ما كان يراها سعيدة، وكانت عمتي إلى جانب فراشها كانت توجد وحدة أدراج ضخمة مفتوحة دائمًا وتملؤها بالقطط التي كانت تتجول بالمستشفى حين تضع لهم الطعام الذي تقدمه لها المستشفى، وكانت القطط أيضًا تحيط فراشها وترقد إلى جانبها أيضًا.

وفي إحدى الزيارات أو في آخر الزيارات، حينما دخلنا غرفتها وجدنا فراشها خاليًا وكنت أسمع الطبيب يُحدث والدي عن أن إحدى الممرضات قد حقنتها بشكل خاطئ مما أدى إلى وفاتها، حزنت للغاية لانتهاء لعبة الاختباء بجلبابها الواسع، وحزنت حينما رأيت القطط تتقافز من الأدراج واحدة تلو الأخرى يرحلون في حزن.

أتذكر حينما كانت والدتي تقف في شرفة المنزل تتابعني بينما ألعب كرة القدم مع أصدقائي في الحارة حتى لا أغيب عن نظرها ثانية واحدة، وإذا حاولت الابتعاد قليلًا تصرخ عاليًا حتى تنقطع أحبالها الصوتية بأن أصعد إليها في الحال، وفي فجر إحدى الليالي كنت أقف أنا في شرفة المنزل بينما كنت أُتابع والدتي وهي في صندوق محمولة على الأعناق، وحينما ابتعدت والدتي عن أنظاري قليلًا أخذت أصرخ عاليًا حتى ذابت أحبالي الصوتية بأن تصعد إليّ في الحال.

******

«اليافطة الإعلانية»

كان هناك مِئات الأشخاص الواقفون أمام تلك اليافطة الإعلانية المُحلقة عاليًا في السماء، ارتفعت أعناق الجميع نحوها على الرغم من أن اليافطة كانت بيضاء خالية ولا تُعلن عن أي مُنتج، كان هناك مُجرد سيدة تتدلى من هذه اليافطة الإعلانية بحبل يلتف حول رقبتها كي يُعلن عن مُفارقتها للحياة.

أخذ الجميع يُطلق الظنون حول سبب انتحار هذه السيدة بتلك الطريقة الجريئة، وكان هو واقفًا بين الجموع في بدلته السوداء الرسمية ترتسم على شفتيه ابتسامة غامضة، نفث دُخان السيجار إلى الأعلى، وفي المسافة بين خروج دُخان السيجار من فمه وبين وصوله إلى السيدة المشنوقة في اليافطة الإعلانية، همس إلى نفسه: «يا لها من فكرة إعلان رائعة، سوف يكون المُنتج عبارة عن حبل غسيل يستطيع أن يتحمل حمولة سيدة المنزل وليس ملابسها فقط».

******

«فوضى»

دخل عليها في غاية الوسامة، قميص أبيض، ورابطة العنق السوداء أسفل بدلة سوداء رسمية أنيقة، حذاء أسود لامع في مقدرته أن يستخدمه كالمرآة، شعر رأسه أنيق ومُهذب، حليق الذقن، تقدمت حبيبته نحوه، خَلَعَت عنه جاكيت البدلة السوداء وعلقته على ذراعه، شمرت عنه أكمام قميصه قليلًا، فكت رابطة عُنقه قليلًا، حررت أول زر من القميص الأبيض حتى ظهرت بوادر شعر صدره، أحضرت زجاجة مياه وبخت منها قطرات أسفل إبطيه حتى رسمت بها دوائر العرق، تخللت أصابع يديها شعر رأسه وأخذت تلهو به حتى أصبح أشعث الرأس، جاءت بحفنة من تراب الأرض في قبضة يدها ثم نثرته بعشوائية على حذائه الأسود وأسفل بنطاله، وأخيرًا.. تأبطت ذراعه في زهو استعدادًا للرحيل، قالت له: «هكذا تكون الوسامة الرجولية، قليل من الفوضى والعشوائية وآثار الكفاح».

******

«إغراء الموت»

بمُجرد تسلله في ظلام منتصف الليل ودخوله إلى الغرفة من حيث لا تدري، فالنوافذ مغلقة وكذلك الباب أيضًا، شعرت به وهي في نومها القلوق دائمًا، شيء من حواسها جعلها تشعر به، رغم أنه لا أنفاس له ولا رائحة ولا خطوات، كانت تنتظره دون ميعاد محدد مثل الجميع، لم يتعاظم الخوف داخلها إلا بعد أن انتشرت سيرته في تسلله الاحترافي في أي وقت ودون أي ميعاد، ليجعلك جثة هامدة، فعل ذلك مع أعداد لا حصر لها ولا عدد، ولكنها كانت تعلم قدراتها جيدًا، وقد أعدت لهذا اليوم الذي لا ميعاد له فكانت دومًا جاهزة.

كانت تشعر به وهو واقف أمام فراشها يستعد لقبض روحها، فأسقطت الغطاء من على جسدها وهي تتلوى على الفراش، الإغراء هو الحل، أبيع جسدي مقابل الحفاظ على روحي.

كانت ترتدي قميص نوم أسود اللون وكانت قد رفعته في تقلباتها المحمومة وهي غارقة في عرق نار جهنم الذي اعتلى جسدها وألصق القميص به حتى زادها إغراء، ظهرت مؤخرتها من أسفل القميص، كان لونه وردي فاقع للغاية، كذلك حمالة صدرها كانت تحمل نفس اللون من أسفل قميصها الأسود، كان ثدياها يتفجران من داخله وهي تضمهما على بعض في حركة دائرية مستمرة وكأن هنالك شيطان غير مرئي يُضاجعها، تعلم جيدًا أنه قد خارت قواه وهو يُشاهد أجمل امرأة في الكون بشهادته، قد حافظت على عذريتها فقط من أجل تلك

اللحظة.. لحظة قررت فيها أن تُشعره وحده بأنه من يمتلك جسدها، سوف تُقدم غشاء بكارتها قربانًا لإرضائه.

زادت التواءاتها شدة وهمجية، أخذت تمزق قميصها وحمالة صدرها بأصابعها وهي مغمضة العينين في شهوة لا مثيل لها، بالطبع هو يشعر الآن بأنه من يفعل ذلك بقدراته دون حتى أن يلمسها، تشعر بفحولته وهي تتفحل، مزقت القطعة التي تغطي رحمها، أخذت تغرس أظافرها المطلية باللون الأسود القاتم في أجزاء مُتفرقة من جسدها، غرست الثلاثة أصابع الوسطى الراقدين ما بين الخنصر والإبهام في رحمها فانبثق الدم يجري على فخذيها ليُغرق الفراش، فتحت نصف عينيها لتُشاهد انهياره وتستمتع به، كانت تتخيل شكله كما سمعت عنه وقرأت، بالطبع لم تسمع عنه من أحد رآه من قبل، لأن كل من يراه يموت بعدها، أقنعها الشيطان – أو أقنعته هي – بأنها قادرة على إغرائه حينما يأتي ليقبض روحها، أقنعها بأنها قادرة على أن تجعل «عزرائيل» يضعف ويجعلها معه حتى النهاية بعد موت الجميع.

لكنها لم تجده، وجدت والدها يرتدي لِباسًا أبيض و «فانلة داخلية» بيضاء تُظهر ذراعيه المُمتلئين والمليئتين بالشعر الغزير وشعر صدره المُتناثر في عشوائية، ويضع كفه على كرشه الضخم، وباليد الأخرى تقبض كفه على سكين ضخم، لم تجد حتى الفرصة لتتفاجئ، ركض نحوها وشق صدرها بالسكين في طعنات متتالية، لحظتها فقط تقدم «عزرائيل» ليقبض روحها في هدوء.. ورحل.

******

«عالِم الفلك»

دائمًا ما كانت توبخ طفلها دون سبب أو لأتفه الأسباب، تجرُه من يده خلفها كما لو كان ذبيحة العيد، طبعت أصابعها على خده من كثرة صفعه بين كل حين والآخر، دائمًا ما كانت تسُبه وتنعته بأقذر الألفاظ، تهدمه بين كل حين والآخر.. «أنت فاشل.. أنت بهيمة.. أنت لا شيء.. أنت نكرة.. أنت لا تستحق في تلك الحياة سوى الموت».

وفي إحدى الليالي جاءها خبر مقتل طفلها حينما اصطدم القطار بأتوبيس مدرسته، ظهرت بعدها في أحد البرامج التلفزيونية ترتدي عباءة سوداء تبكي وتصرُخ وتلطم وجهها بعد أن طبعت أصابعها عليه من كثرة صفعه بين كل حين والآخر، قائلة: «كُنا جميعاً نتنبأ له بأن يُصبح يومًا ما عالم فلك».

******

«النجاح من فراغ»

كيف كانت البداية؟ كانت البداية حينما أحضر المدير شابًا وأخبرني بأنه سوف يتمرن في الشركة التي أعمل بها في فترة إجازته الصيفية وطلب مني أن أتولى أنا تدريبه وتعريفه بطبيعة العمل، ويشهد الله أني أكسبته خبرة السبع سنين فترة عملي بهذه الشركة كما هي دون نُقصان.

حتى وجدته في أحد الأيام جالسًا على مكتبي، وأنا جالس حاليًا في منزلي عاطل عن العمل بعد أن استبدلوني بشاب قد اكتسب كل خبراتي وعينوه بأقل من رُبع راتبي.

الملل يقتلُني وأنا أجلس على تلك الأريكة اللعينة أمام التلفاز أُطالع ملامح طفلي ذي الثلاث سنوات وهو نائم، بينما زوجتي ما زالت في عملها ولن تعود سوى مع غياب الشمس وما زالت الشمس لتوها مُشرقة، لقد توقعت أن تُقدم استقالتها فور علمها بخبر طردي من الشركة!

ماذا أفعل؟

كيف أقتل الوقت؟

وجدت أمامي على الطاولة مجموعة أطباق مُتسخة بعد عشاء الأمس، تناولتها ودخلت إلى المطبخ فوجدت كمًا هائلًا من الأطباق والأكواب المُتسخة، شمرت أكمامي وشرعت في غسل المواعين ثم قُمت بتنظيف المطبخ كاملًا، الأمر قد أبهرني أنا شخصيًا وجعلني فخورًا بنفسي، كما

جعلني أفرغ طاقة لا بأس بها.

لقد مرت ساعتان فقط ولكن ما زال هنالك العديد من الساعات حتى تعود زوجتي من العمل، ركضت حينما سمعت بُكاء طفلي بالخارج، فخرجت له وحملته ثم داعبته كثيرًا، وحضرت له الطعام، وبينما هو يتناول طعامه خطرت على بالي فكرة بأن أقوم أنا بتحضير الغداء لي ولزوجتي كي أقتل ساعات أُخرى، وبالفعل بحثت عن أشهى وصفات الأكل وشرعت في الطهي، كُنت مُستمتعًا للغاية وأنا أضع المقادير بينما أتراقص وأُغني، حتى انتهيت وما زال هناك مُتسع من الوقت، أكملت تنظيف المنزل بالكامل، ثم دخلت إلى الحمام واصطحبت طفلي معي حتى نستحم سويًا ونرتدي ثيابًا نظيفة، جلست مُنهكًا بعدما أشعلت عود بخور، كلها دقائق ودخلت زوجتي.. صرخت، بكت، وضحكت، وتراقصت، حتى طفلي كان يُقهقه عاليًا من رد فعل زوجتي.

مرت الأيام واعتبرت أن عملي في البيت حتى تعود زوجتي من عملها هي مهنتي الجديدة، حتى أصبح الموضوع روتينيًا للغاية، ولكن ليس هنالك مُشكلة فكل الأعمال في بدايتها مُمتعة ثم تُصبح روتينية للغاية.

مرضت زوجتي ولم يعُد باستطاعتها الذهاب إلى العمل، وكان لا بد أن أبحث لنفسي عن عمل آخر حتى نُحافظ على استمرارية دخل البيت، بحثت كثيرًا وكثيرًا في شتى المجالات عن عمل أُتقنه، ولكني فشلت، حتى مهنتي القديمة لم أعُد مُتقبلها، ثم وجدت أخيرًا ضالتي، واليوم قد ارتفع سعري كثيرًا في عالم الخدمة في المنازل!

******

«الأقاويل»

كانت تمشي في الحارة الشعبية حيث يظهر جسدها الأبيض المائل للوردي، كان جسدها عاريًا تمامًا حيث يكشف عن صدرها ونهديها في أُنوثة مُتفجرة، التفت حولها الأعين والألسنة وهي صامتة بلا حِراك، قيل إنها مجنونة بلا أدنى شك، وقيل إنها عاهرة قد قبضها زوجها وهي تخونه عارية مع أعز أصدقائه فطردها عارية هكذا حتى تكون عبرة للناظرين، وقيل إنها جِنية وليست من جنس البشر، وقيل إنها إنسية ولكن قد سكنها جني، ومنهم من اكتفى بالنظر إليها بنَهَم ونشوة، ومنهم من حَرَكَته غريزته الحيوانية في محاولة للمسها، شخص واحد فقط هو من نفض عن رأسه الأسباب جميعها وحرك خطوات قدميه في اتجاهها ثم نزع عنه قميصه وبنطاله وأهداهما إياها، ثم ذهب هو عنها عاريًا، التفت حوله الأعين والألسنة وهو صامت عاري بلا حِراك، قيل إنه مجنون بلا أدنى شك، وقيل إنه زانٍ قد طردته زوجته بعد أن اكتشفت خيانته... وقيل، وقيل.

******

«عملية تبديل»

كان جالسًا على أحد الكراسي الخشبية المُلتصقة بالتلفاز في تلك القهوة التي تتوسط الحارة، كان يُدخن النارجيلة ويحتسي كوبًا من الشاي الثقيل مُصدرًا تلك الأصوات من شفاهه الغليظة.

كان صوته ضخمًا غليظًا وهو يُوجه تعليقاته وتوجيهاته التلقائية إلى الفريق الذي يُشجعه في التلفاز، ثم أخذ يشتم ويسب هذا اللاعب الذي تجرأ على إضاعة تلك الهجمة المُنفردة.

وفجأة، طلب المُدرب أن يقوم بعملية استبدال في فريقه، سدد المُدرب نظرة عبر التلفاز نحو هذا المُشجع الجالس على القهوة، طلب منه أن يترك كرسيه الخشبي ونارجيلته وينزل إلى أرض الملعب بدلًا من هذا اللاعب الذي أضاع تلك الهجمة، وحينما دخل المُشجع عبر شاشة التلفاز إلى أرض الملعب كان واقفًا كالصنم لا يفعل شيئًا سوى السُعال حتى سقط على أرض الملعب، علم أن أرض الملعب تختلف كثيرًا عن أرضية القهوة!

******

«مصمصة الأصابع»

صعدت إلى أتوبيس هيئة النقل العام، لم أجد مكانًا فارغًا سوى كرسي واحد من الكنبة الأخيرة المكونة من ستة كراسي تقريبًا في نهايته. هذا المكان الذي يبغضه الجميع ويفضلون الوقوف عن الجلوس فيه وسط أكتاف الغرباء، ولكني ذهبت لأريح قدمي من عناء اليوم وجلست.

كانت تجلس أمامي على أحد الكرسيين على اليسار، سيدة مُحجبة، يبدو من رأسها وكتفها أنها متوسطة الحجم والسن، وكان يجلس إلى جانب هذه السيدة رجل عجوز يلتصق نظره بالشباك ويبدو أنها لا تعرفه، ولا تنظر نحوه حتى.. نظرها كله مُتمركز حول هذا الشاب الجالس على الكرسي الذي أمامها بالضبط، هذا الشاب الذي يرتدي طاقية فوق رأسه، يبدو عليه من ظهره الطول والعرض، أجلس مكاني في نهاية الأتوبيس أرمق بعيني السيدة المحجبة أمامي والشاب الطويل العريض أمامها.

وجدت السيدة تفتح حقيبتها الجلدية السوداء المهترئة التي وضعتها على حجرها ثم أخرجت منها كيسًا بلاستيكيًا شفافًا يرقد بداخله رغيفان ينبثق الجبن البيضاء من داخلهما، أمسكت الرغيف الأول وقطعت منه بأصابعها مقدار اللقمة ثم فوجئت بأنها تضعها في فم الشاب الذي يجلس على الكرسي أمامها، مضغ الشاب اللقمة التي وضعت في فمه دون حتى أن يهتز رأسه أو ينظر خلفه، إذًا هذه السيدة على علاقة ما بهذا الشاب الذي يجلس أمامها، ويبدو أكثر أن هذه السيدة هي أمه،

ولكن الوضع محرج للغاية لهذا الشاب، أم تُطعم ابنها الذي قد تجاوز منتصف العشرينات في فمه أمام الجميع في أتوبيس هيئة النقل العام!
تابعت السيدة تضع اللقمة في فم ابنها الشاب واحدة تلو الأخرى، وبعد كل لقمة تضعها في فمه تمسح بأصابعها ما تبقى على شفتيه من جبن ثم تمتص أصابعها بنَهم وصوت مرتفع، وبعد أن انتهت من إطعامه من الرغيف الأول، أخرجت الثاني – والذي يبدو أنه لها هي – فتفتح فمها لتقضم منه، وقبل اخر لحظة قبل أن تُغلق أسنانها عليه، تفتح فمها مرة أخرى وتخرج أول الرغيف من فمها، ثم تنظر إليه، تقطع لقمة منه بيدها ثم تضعها في فم ابنها – هذا الشاب الراقد أمامها، تجده ما زال يمضغ في نهم فتبتسم راضية، تقطع بظفرها من الرغيف ذرة من الخبز غير قادرة على أن تضاهي حجم النملة ثم تضعها في فمها لتذوب به مع ريقها قبل أن تصل حتى لمعدتها، ثم تلقمه في فمه اللقمة وتمص أصابعها ببواقي الجبن الأبيض الذي أحاط فمه، وظلت الأم كذلك وبين كل قضمة والأخرى تفكر أن تأكل هي ولكنها تتراجع وتُبدي ابنها المدلل الذي لا يخجل أو تهتز له رقبة، ثم أخرجت زجاجة لبن بالفراولة ووضعتها على فمه وثبتتها ثم سحبت يده اليسرى وجعلته يُمسك بها، فتناولها ولم يُسقطها عن فمه إلا بعد أن قضى عليها، تناولتها منه، مسحت فمه بإصبعها وامتصته كعادتها، أخذت ترج قليلًا في العلبة فتأكدت أنها خاوية سوى من بعض القطرات الملتصقة بجدار الزجاجة فوضعتها على فمها وأخذت تتساقط القطرات حتى توقفت، ثم أخرجت من حقيبتها « كيس شيبسي »، وأخذت تناوله في فمه واحدة

تلو الأخرى، وتأكل هي الفتات أو تمتص التوابل الملتصقة بأصابعها، لا هو يعترض أو يرضى أو يُبدي أي اهتمام.

على طوال الرحلة لم يلتفت وينظر حتى إليها، حتى هي واثقة مما تفعله بشكل لا مثيل له، لم تتحرك عيناها في الأتوبيس حتى تطمئن ألا أحد يراها فتخجل من المظهر العام، كانت نظرات جميع من يجلسون بجانبي خلفها تحمل الكثير من الاشمئزاز والاستغراب من هذه السيدة وهذا الشاب الطويل العريض المدلل الذي لا يخجل مما تفعله والدته التي هي بينما كانت تُمصمص أصابعها كان الجميع يمصمص شفاهه تحسرًا على زمن الرجال، وكان الجميع ممن يجلسون أمام الشاب والسيدة وينظرون خلفهم حتى يروهم من وجوههم يبدو على أعينهم التأثر وابتسامة الشفقة.

قام العجوز الذي يجلس إلى جانب السيدة وانصرف فأصبح كرسيه خاويًا، خبطت السيدة على كتف ابنها الذي يجلس أمامها عدة مرات تتعالى حدتها مرة تلو الأخرى حتى انتبه الشاب وحرك رقبته قليلًا في بطء شديد، فأشارت له بأن الكرسي إلى جانبها أصبح خاويًا فنهض والتف ليجلس جانبها، كانت ملامحه طفولية للغاية.. شاب هو بالفعل طول بعرض ولكنه طفل!

يحمل ابتسامة طفولية دائمة تنم عن إعاقة ذهنية، فجلس بجانب الشباك سعيدًا للغاية وهو يُشير إلى والدته على أشياء لا أهمية لها في الشارع.. كلب، شجرة، بائع بطاطا، عامود إنارة، طفل رضيع، سيارة، كوبري، يافطة إعلانية، قطة.

ومع كل كلمة ينطق بها ويشير نحوها كانت تهز الأم رأسها له وتبتسم وهي تشجعه دون ملل، ثم أخذت تعبث في حقيبتها قليلًا وتخرج أكياسًا بلاستيكية خاوية، لم تجد سوى زجاجة مياه لم يتبقَ منها سوى ربعها فأخرجتها ووضعتها على فمها، نظر إليها فأسقطت الزجاجة عن فمها ووضعتها على فمه، ولم يُسقطها حتى قضى عليها وأصبحت خاوية، فابتسمت راضية وهي تحاول إسقاط بضع قطرات من المياه الملتصقة بزجاجة المياه الفارغة في فمها حتى توقفت.

******

«ميزان العدل»

قُتل طفله، وبعد قضائه سنوات في المحكمة إلا أن القضية قد قُيدت ضد مجهول، يعلم هو القاتل جيدًا وإن كان مجهولًا لدى المحكمة والناس جميعًا.

يعرف جيدًا ذلك العجوز الأعزب الذي جاوز المائة عام، ذلك العجوز الذي اغتصب جسد طفله حتى تركه قتيلًا، أحال بيته إلى محكمة، وألصق خلفه على الحائط ميزان العدل، وكتب أسفله: «العدل أساس الملك».

قرر أن يكون بيته مفتوحًا لأصحاب المظالم حتى تُعطي محكمته كل ذي حق حقه، عيّن في هذه المحكمة رئيسًا ونائب رئيس وعشر مُستشارين يستشيرهم قبل إصداره الحُكم النهائي، هو القاضي الذي حكم في قضية طفله بالإعدام شنقًا على ذلك العجوز الشاذ بعد الاستماع إلى الشهود والدفاع وبعد الإطلاع على كافة الأوراق.

تراوحت أحكامه ما بين السجن والبراءة والإعدام شنقًا، قُبض عليه وتمت إحالته إلى مستشفى الأمراض العقلية، ولكنهم وجدوه في إحدى الليالي مشنوقًا. رأى أن الإعدام هو الحكم العادل الذي يستحقه.

******

«الرب واحد»

هذا الشاب هو إمام الجامع والمُؤذن للصلوات الخمس بداخله، شاب تقي.. نقاؤه من نقاء الثوب الأبيض الناصع الذي يرتديه، والطاقية البيضاء المُستديرة التي تُزينها الثقوب بعد أن اعتلت رأسه، شاب شرقي أسمر اللون ينبثق النور من وجهه، يصعد الشاب تلك السلالم في هدوء ووقار يستغفر الله ويُسبحه ويذكُره حتى تنتهي السلالم، بعد وصوله إلى المئذنة، يقترب من الميكروفون ليؤذن لصلاة الفجر:

الله أكبر الله أكبر.. الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله

وفي وسط الآذان لمح المُؤذن أمامه على امتداد المئذنة فتاة تقف فوق سطح العمارة ترتدي حجاب الرأس رافعة كفيها نحو السماء داعية الله على صوت الآذان، اضطربت نفس المُؤذن وتذبذب صوته واضطرب، حاول أن يُقاوم ويعود إلى خشوعه، ولكن كلما غض بصره كان يهرب نحوها. ومُنذ تلك الليلة، أصبح كلما أوشك ميعاد صلاة الفجر تجده راكضًا كالخيل يقفز على السلالم وهو يتعثر في جلبابه حتى يصل إلى المئذنة فيبحث عنها حتى يجدها رافعة كفيها نحو السماء على صوت آذانه المُضطرب وصوت دقات قلبه التي تتردد أمام الميكروفون.

ومع مرور الأيام، أهمل في نفسه وفي خشوعه، حيث قلبت تلك الفتاة موازينه بعد أن ارتبط ميعادها بميعاد صلاة الفجر، وإن غابت عنه يومًا يطلب من أحدهم أن يُؤذن هو للصلاة، أصبح ينتظر الفجر فقط كي

يراها، وأصبحت بقية الصلوات بالنسبة له أوقات ينتظرها تمُر حتى يأتي الفجر.. ويراها.

وفي إحدى الليالي، قفز السلالم ليؤذن لصلاة الفجر فوجدها مُمسكة بسبحة تُسبح الله عليها، وحينما أوشك الآذان على الانتهاء مُناديًا:

الصلاة خير من النوم..

الصلاة خير من النوم..

وجد الصليب يتدلى من سبحتها لترسمه على صدرها!

باسم الآب والابن والروح القُدس.

******

«محطة الشهداء»

واقف داخل المترو المليء بالرُكاب، ذراعه مُعلقة ليقبض بكف يده في ذلك العامود المعدني حتى لا يفقد توازنه، تفوح من تحت إبطه أقذر روائح العرق، كف يده الأخرى أسفل كرشه الضخم، يعبث بأشيائه ناحية سحاب البنطال، بينما يوجه نظرات مُشبعة بالإثارة والشغف وهو يكز بأسنانه على شفتيه المُحاطة بذلك الشارب الكثيف.. تلك النظرات الموجهة نحو شابة، يتخيلها في جميع الأوضاع الجنسية.. ما زال العرق ينساب على جبهته، وما زالت بقعة العرق تحت إبطيه في اتساع، فجأة.. وجد الفتاة مُلتصقة به تُعلن موافقتها على إحالة خيالة إلى واقع، دخل الرجل في نوبة بُكاء حادة، صفع الشابة على وجهها، فُتح باب المترو في محطة الشهداء، لا بُد أن يلحق ميعاده بالطبيب الذي يُعالج عجزه.

******

«الرقبة التي لم تفديه»

مُنذُ طفولتي وكان والدي بضخامة كِرشه أسفل «فانلته البيضاء الحمالات»، وشعر صدره وذراعيه ورقبته وذقنه وشاربه الكثيف وحاجبيه الغلاظ بل والشعيرات المُلتفة التي تتسرب من أنفه وأُذنيه أيضًا، كان مثل الغوريلا يملؤ جسده الشعر فيما عدا المنطقه التي تحتل مُنتصف رأسه كانت فارغة سوى من زبيبة الصلاة.

مُنذ طفولتي وكان والدي هو رمز الرُعب الأمثل لدي، مجرد سماعي لصوت مفتاحه وهو يغرسه في الباب حتى يدخل إلى المنزل كان قادرًا على أن يجعلني أبكي ذعرًا، لا تنتهي توجيهاته وكأنه أمر أمي أن تقذف من رحِمها قطعة لحم حتى يُسويها هو كما يشاء:

اذهبي وانتهي من واجباتك ودروسك، حتى في إجازة مُنتصف العام

اذهبي ونامي حتى تستيقظي مُبكرًا للمدرسة، حتى في إجازة نهاية الأسبوع

لا بد وأن تصومي، حتى في غير شهر رمضان

اذهبي وتوضأي لتأدية فرض الله، حتى في أيام حيضِي

لم يُعكر صفو أحلامي سوى والدي، حتى أني حينما أخذت أبحث عن فتى أحلامي، رسمت له ملامح وصفات مُستحيلة، وأقسمت أني لن أرضى بأحد سواه كما رسمته في كُراستي مُنذ طفولتي، جميع صديقاتي يحملن أطفالهن، وأنا ما زالت في رحلة البحث عنه، بحثت عنه في السماء وفي البر والبحر.

وفي إحدى الليالي قُبيل آذان الفجر، استيقظت من نومي ذاهبة نحو الحمام حتى أقضي حاجتي، وأنا في وضع الاستعداد لجلوسي على المِرحاض، لمحت ملامحه، دققت النظر في قلب المِرحاض، إنه هو.. كما رسمته في مُخيلتي، في كُراستي، هذا هو فتى الأحلام، ترتسم ملامحه على صفحة مياه المِرحاض، ينظُر نحوي بابتسامة عذبة، ويمدُ يديه نحوي، استجبت للنداء، أعطتيه يدي حتى سحبني نحو الداخل، أخذت أتراقص بين يديه في دلال، أسبح في أحضانه في تلك المياه الدافئة، فجأة استيقظ والدي من نومه متأوهًا، ركض نحو الحمام، أغلق المرحاض بمؤخرته الضخمة المُشعرة، ثم أفرغ ما بداخل معدته، حيث لم يُعكر صفو أحلامي سواه، فكانت توجيهاته طوال الوقت تجعلني أهرب من كل شيء أريده، وأفعل له كل ما يريده، ولكني أيضًا أفعل من ورائه كل ما أريده، ألعب وأسهر وأرقص وأغني وأدخن وأعشق.

وفي إحدى الليالي كان عشيقي يحتضنني في قلب الليل حتى يُشعُرني ببعض الدفء في تلك الليلة المُمطرة ثلجًا، كُنت فزعة للغاية وسط ركض المارة أمامنا في الشوارع وسط ظلام لا يُنيره سوى ومضات الرعد والبرق وهو يُصرخ بعد أن كاد يصُم آذاننا، كنت سعيدة للغاية وأنا أشعر بتلك الرعشة الساخنة تسير داخل جسدي باعثة بعض الدفء والسخونة في هذا الجو البارد، زاد من اقترابه مني حتى شعرت بأنفاسه تلفح وجهي، لم أشعر سوى بشفتيه تُعانق شفتي في استسلام.

وبينما أنا كذلك لمحت على الاتجاه الآخر من الطريق وجهًا ليس غريبًا على ذاكرتي بالمرة، وجهًا غاضبًا يُحملق في عيني بعينيه الجاحظتين

وشاربه الكثيف، كان وجه أبي الذي أضاء في الظلام على ومضة البرق، وبينما أنا أفيق من غيبوبة نشوة القُبلة، كان أبي يركض نحوي في جنون قاطعًا الطريق، غطا على صوت الرعد والبرق ذلك الصوت الصاعد من بوق الشاحنة التي دهسته في أقل من ثانية حتى خالطت دماؤه الأمطار، كم أنا محظوظة للغاية.. مات أبي قبل أن تطال يديه رقبتي، وليت رقبتي كانت تفديه!

******

«نصفان»

كان ذلك الرجل تحت خط الفقر، ولكن أغناه الله بعد أن رزقه من حيث لا يحتسب، أصبح ذلك الرجل فوق خط الغنى، كل ما كان يخشاه أن يفقد تواضعه ويتوغل الغرور داخله، قرر أن يرتدي من الأعلى قميصًا أبيض ورابطة عنق سوداء وجاكيت البذلة الأسود وساعة فضية ضخمة، ومن الأسفل ما زال يرتدي بنطاله المُتسخ القصير الذي تملؤه الثقوب والبقع، ونعاله البلاستيكي الأخضر، وكلما راوده شعور الغرور.. نظر إلى نصفه السُفلي.

******

«لنرى من منا سيتحمل الألم أكثر»

تسللت القاتلة باحترافية شديدة وليونة، قفزت من أعلى السطح إلى أسفل، وفي أقل من ثانية أصبحت داخل شرفة منزل ضحيتها الجديدة، كانت ترتدي ملابس سوداء فضفاضة كلون شعرها القصير لا تميزها من ظلمة المنزل في ذلك الوقت، فقط وجهها الأبيض المستدير هو مصدر الإضاءة الوحيد، تسللت في ثقة نحو الغرفة، وجدت ضحيتها نائمة على فراشها تنتظر نهايتها، اقتربت القاتلة منها وهي تخرج نصلًا لامعًا ساعد لمعانه في وجود مصدر إضاءة جديد، رفعت قبضتها عاليًا وقبل أن تغرس النصل في صدر ضحيتها، سمعت حركة خافتة خلفها، وصوت طفولي يقول:

– لنرى من منا سيتحمل الألم أكثر.

حينما نظرت وجدت فتاة صغيرة في عمر الخمس سنوات تقف على باب الغرفة وعيناها يملؤها الذُعر، لكنها كانت تشبه القاتلة تمامًا، نفس الملامح.. الغريب أن الطفلة لم تصرخ كي تنقذ والدتها، وكأنها تشاهد أحد أفلام الكرتون المدبلجة التي اعتادتها، دققت القاتلة في الطفلة مرة أخرى، لم ترَ أحدًا يشبهها في طفولتها مثل هذه الطفلة غريبة الأطوار، لمحت في الظلام ابتسامة على شفتي الفتاة وكأنها تشجعها على قتل والدتها.

تذكرت القاتلة حينما كانت طفلة في عمرها، حينما شعرت بخطوات أمها الخافتة في غرفتها الوردية، في البداية ظنت أن والدتها تخشى أن توقظها من النوم كما اعتادت، ولذلك فهي تتسلل في صمت، فتحت

عينيها برفق فوجدتها ترتدي جلبابًا فضفاضًا مُتسخًا مُبتلًا وعلى رأسها طرحة سوداء قد تعصبت بها جعلت شكلها مُخيفًا للغاية، تناولت والدتها من الأرض سجادة غرفة نومها التي قد نُقش عليها أميرات عالم الكرتون، وضعتها على كتفها ثم خرجت من الغرفة.

قفزت من فوق فراشها وتسللت خلف والدتها واختبأت خلف الستار حتى ترى مصير أميراتها، اتجهت والدتها نحو الشرفة ووضعت السجاد على السور وتناولت بين قبضة يدها مضربًا ضخمًا وأخذت تنهال على الأميرات بالضرب بعزم ما فيها، لم تفق والدتها سوى على صوت بكُاء طفلتها ونحيبها وهي تستعطفها أن تتركهن في سلام وترحل، بينما كانت ذرات التُراب تتصاعد من أفواه الأميرات مُستنجدين، لم تُدرك أن والدتها كانت تقوم بتنظيف السجاد من التراب، فتحت باب المنزل وأخذت تركض على السلالم ومن ثم الشوارع حتى تاهت في المدينة، وتلقفتها الأيادي لتصنع منها قاتلة محترفة.

عادت من ذكرياتها.. نظرت نظرة أخيرة نحو الفتاة، فكرت كثيرًا أن تتراجع، ولكنها غرست نصل السكين في صدر والدة الطفلة، ركضت الطفلة نحوها، احتضنتها من مؤخرتها بقدر ما طالت من جسدها، ولم تعِ القاتلة هل هي تحتمي فيها من والدتها؟ أم تحتمي فيها منها؟ قالت لها الفتاة:

– قبل أن تنام والدتي غاضبة مني من كثرة إرهاقي لها قالت لي «لنرى من منا سيتحمل الألم أكثر؟».

******

«الحِمار الأبيض»

كنا في طفولتنا ثلاثة يحسدهم الجميع على تلك الصداقة، لم يعرف التخاصم طريقًا لنا يومًا ما. وفي إحدى رحلات المدرسة إلى الفيوم، عشقنا نحن الثلاثة فتاة واحدة، تخاصمنا حولها، كانت قريبة منا، ولكن كانت تفصلها عنا بُحيرة كبيرة، اتفقنا على أن نستقل مركبًا صغيرًا حتى يوصلنا صاحبها إلى تلك الفتاة، على شرط أن من تقبل به الفتاة هو الذي سوف يعود بها في المركب، وسوف يعود الاثنان الخائبان عن طريق السباحة في البحيرة حتى يعودا إلى الضفة الأخرى.

حينما وصلنا وعرضنا على الفتاة أنفسنا، تركنا لها حرية الاختيار، تركتنا جميعًا واتجهت نحو حمار أبيض، ركبته ثم رحلت في صمت.. اختفت الفتاة، اختفى المركب الصغير، سبح ثلاثتنا في البحيرة حتى الضفة الأخرى، وزادت صداقتنا أكثر من ذي قبل.

******

« مصمصة الأصابع »

أقاصيص وقصاقيص

عمرو شُهدي

ZERO ONE PICTURES
Production solutions that make sense.

زيرو وان بيكتشيرز للتوزيع – أحمد فخري – مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 01090288777

E.mail: Zeroonepictures@outlook.com
Zeronepictures.com
website: www.zeronepictures.com

© جميعُ الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو الكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.